حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

www.hiragate.com

دورية تصدر كل شهرين

السنة الرابعة عشرة / (سبتمبر - أكتوبر) ٢٠١٨

68

Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary | September - October 2018

الإنسان والطبيعة

أقمنا ناطحات وجففنا النبات،

وأيقظنا عادًا وثمود من السبات،

سلكنا مع الطبيعة دروبًا جائرة،

وأنكرنا نظامًا فريدًا، بديع النغمات.

***

٢ شعور الرحمة
فتح الله كولن

٩ الخوف من الإسلام.. رؤية علاجية
الشيخ عبد الله بن بيه

١٥ نبات يكافح التلوث
تونجاي جليك بيلاك

رسائل الرحمة

ما فتئ الأستاذ فتح الله كولن -كما هو دأبه في كل عدد من حراء- يدعو الإنسانية عامة والمسلمين خاصة إلى احتضان الوجود كله بقلب مفعم بالشفقة والرحمة.. ويذكّر بإلحاح أن الأرض ما انتظمت، والسماءَ ما استوت، إلا برسائل الرحمة التي تواردت من وراء الآفاق، وأن كل شيء ما حاز تناغمه الباهر ووئامه المذهل وعمله الانسيابي، إلا بفضل الرحمة التي تجلت في نسيم الهواء وتدفق الأنهار واقتربت منا حتى صافحت جباهنا ولامست أقدامنا.. والرسالة التي يكرس الأستاذ كولن قلمه لها في مقاله المتصدر لهذا العدد، تندرج في هذا الاتجاه، فهو يسعى إلى إحياء "شعور الرحمة" وبعثه من جديد في قلوب البشرية كافة.

وفي نفس الاتجاه يأتي مقال العلامة الشيخ عبد الله بن بيه، ليلفت الانتباه إلى سماحة الإسلام واحتوائه جميع الأمم والأطياف بالرأفة والرحمة.. ويبحث عن وسائل السلام والعافية للمجتمعات العالمية، وعن المقاربة الإيجابية التي تعيد الثقة بين المسلمين وغيرهم، والتي تجلي الصورة الحقيقية والصحيحة للإسلام.. وذلك من خلال "الخوف من الإسلام.. رؤية علاجية".

أما عرفان يلماز فيعود ليتحفنا بمقاله الشيق الذي يتيح فيه للضفدع الحديثَ معنا وعرْضَ المواهب التي تحلّى بها لخدمتنا -نحن البشر- في هذا الكون الشاسع البديع. وأما السنوسي محمد السنوسي فيأخذنا إلى عالم "الغرباء" لنسبر أغواره ونتعرف على فرسانه، ومن ثم لننهل من تجربة هؤلاء الفرسان التي تفوح وعيًا ومعاناة، ومن نورهم الذي ينساب حبًّا وفهمًا وفكرًا وعلمًا.. وذلك من خلال مقاله "الغرباء.. جدائل من الوعي والمعاناة".

وفي "الإبداع حق إنساني" يدعو بركات محمد مراد إلى تجاوز المعتاد وتخطي ما هو مألوف وسائد، بهدف استشراف آفاق جديدة تبرهن على الملكة الخلاقة لدى الإنسان، وصياغة علاقات أكثر ملاءمة لطموحاته في الحرية والعدالة والتقدم.

وعن "التعايش السلمي في ظل التعددية الدينية" يتحدث الأستاذ محي الدين عفيفي لافتًا النظر إلى ضرورة تعايش الناس في سلام في ظل تعدد الأديان، وذلك أمر ينبغي استيعابه لكي ينعم الإنسان بالأمن والاستقرار، ويبتعد عن ثقافة الكراهية والتعصب والتطرف.

أما محمد السقا عيد فيحلّق بنا في فضاء الألوان ليكشف لنا دورها المركزي في عالَمي النبات والحيوان، وبالتالي التناغم المذهل بين هاته العوالم الثلاثة، منتهيًا إلى الإنسان الذي خُلقت كل هذه البدائع لتكون ممرًّا له إلى التأمل والتفكر في هذا الكون البديع. ويتابع تونجاي جليك بيلاك التجوال في عالم النبات -أيضًا- ليزيح لنا الستار عن أسرار نبات القيصوب (الغاب) الذي يملك ميزة خارقة في تنقية الماء وتنظيفه من الملوثات، حتى يصل نقاؤه لمستوى ماء الشرب.

هذا إلى جانب مقالات قيمة أخرى من أقلام نيرة دأبت على المساهمة في حراء منذ انطلاقها، محيلين القراء الكرام إلى قراءتها والاستفادة منها، والله من وراء القصد. ■

المحتويات

شعور الرحمة / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
بين صعود وسقوط / حراء (ألوان وظلال)	٤
حديث الضفدع / أ.د. عرفان يلماز (علوم)	٥
الخوف من الإسلام.. رؤية علاجية / الشيخ عبد الله بن بيه (قضايا فكرية)	٩
الغرباء.. جدائل من الوعي والمعاناة / السنوسي محمد السنوسي (تحليل كتاب)	١٤
البيوت الدمشقية.. تواضع الظاهر وثراء الباطن / د. ناصر أحمد سنه (ثقافة وفن)	١٩
الإبداع حق إنساني / أ.د. بركات محمد مراد (تربية)	٢٣
المعادلة الصعبة بين الحرية والمسؤولية / ألب أرسلان زورا (قضايا فكرية)	٢٧
أخوة كونية / حراء (ألوان وظلال)	٣٠
حوار حول عمل المرأة / يوسف الشاطر (أدب)	٣١
التعايش السلمي في ظل التعددية الدينية / أ.د. محي الدين عفيفي (قضايا فكرية)	٣٣
بأي ذنب أُغلقتْ / د. جمال بن فضل الحوشبي (قضايا فكرية)	٣٦
الصابرون / د. إيهاب عبد السلام (شعر)	٣٩
الألوان في عالم النبات والحيوان / د. محمد السقا عيد (علوم)	٤٠
القرصنة الرقمية / صالح القاضي (علوم)	٤٤
مقولة الإنسان عند العارفين / د. نصر الدين بن سراي (قضايا فكرية)	٤٧
نبات يكافح التلوث / تونجاي جليك بيلاك (علوم)	٥١
عقد المحبة / محمد السيد محرم (أدب)	٥٤
الممارسات العلمية بين وفرة الإمكانات وندرة الغايات / د. عبد الإله بن مصباح (علوم)	٥٨
كتابة المكفوفين محاولات رائدة لعلماء مسلمين / خلف أحمد أبو زيد (تاريخ وحضارة)	٦٢

شعور الرحمة

١

الرحمة هي خميرة الكون الأولى، بدونها كلُّ شيء تخبّطٌ وفوضى.. فبالرحمة وُجد كل شيء، وبها يُواصِلُ وجودَه وينتظم في سِلك النظام.

برسائل الرحمة التي أتت من وراء الآفاق انتظمت الأرض واستوت السماء، وبفضل الرحمة حاز كل شيء -بدءًا من المجرات وانتهاءً بالذرات- تناغمه الباهر ووئامه المذهل وعمله الانسيابي.

في هذه العملية تجري "بروفة" ما سيؤول إليه كل شيء في عالم الخلود. فكل الموجودات تسعى حثيثًا وتتواثب نحو هذا الاتجاه، وفي كل وثبة تتألق الرحمة ويتجلى النظام والانتظام.

لقد تجلت هذه الرحمة الأسطورية في نسيم الهواء وتدفق الأنهار، واقتربت منا حتى صافحت جباهنا ولامست أقدامنا، فمن ذا الذي لم يشعر بها بعد؟

بأجنحة الرحمة تجُول فوق رؤوسنا السحبُ وتصول، وتنشق أرحامها عن غيثٍ ينجدنا كفارس يرتدي أوسمته وحزامه، ويهتف الرعد والبرق ببشارات تلك الرحمة الخفية، فيصدح الكون كله بأهازيج "صاحب الرحمة اللانهائية" وألحانه، وتشدو اليابسةُ والبحار والأشجار والنباتات بأنغامه، ويتراصّون في حلقات وصفوف وجهًا لوجه مترنمين بأغاريد الرحمة، كلٌّ بألفاظه وألحانه.

انظروا إلى الدودة في ترابها.. ما أحوجها إلى الرحمة في حالها الضعيفة تلك! قد تطؤها الأقدام فتسحقها، ومع ذلك تسعى في سبيلها رحمة بالآخرين، فهي سليلةُ عِرقٍ مكافحٍ لا يعرف الكلل ولا الفتور، فتَفتح التربةُ المشفقةُ لها أحضانَها، لتضع في المقابل مئاتٍ من البيضات في كل حفنة من هذا الحضن الدافئ، تتنفس به "التربة الأمُّ" فتَربُو وتنضج. فالتربة رحمة للدودة، والدودةُ رحمةٌ للتربة. فويحًا لأولئك الجهال يَحرقون العشب والجذور وبقايا الزروع حتى تكون سمادًا، وبؤسًا لإنسان يظلم التربةَ والدود معًا ويقضي على الرحمة التي بينهما وهو لا يدري!

ثم انظروا إلى النحلة وهي تُطلِق على ألف زهرة وزهرة بسماتها، أو دودة القز وهي حبيسة منغمسة في شرنقتها، كيف تتحمل صنوف العناء في سبيل التناغم مع أوركسترا المرحمةِ؟ وهل لنا أن نتغاضى عما تقاسيه تلك الفدائيات حتى تُطعِم الإنسانَ العسلَ وتُلبسَه الحرير؟!

بل حدِّث ولا حرج عن رمز الشفقة "الدجاجة" حين تُسلّمُ رأسَها للكلب كي تنقذ فراخها، وتأمّل تلك الوحوش الجائعة التي تضع في أفواه جرائها ما ابتلعته من طعام رغم شدة جوعها، وفكّر كيف يكون شعورها؟

إن كلَّ شيء في هذا الكون يفكّر في الرحمة، ويتحدث بلسان الرحمة ويَعِدُ بالرحمة. وبهذا يمكن النظر إلى الكون كله على أنه سيمفونية الرحمة؛ فكل الأصوات

كل شيء في هذا الكون يفكّر في الرحمة، ويتحدث بلسان الرحمة ويَعِدُ بالرحمة. وبهذا يمكن النظر إلى الكون كله على أنه سيمفونية الرحمة؛ فكل الأصوات والأنفاس، تجري وفق إيقاعٍ رائع لا يمكن أن يتغافل عنها أحد.

حراء

والأنفاس، وكل النغمات المفردة والمزدوجة، تجري وفق إيقاعٍ رائع لا يمكن أن يتعامى أو يتغافل عنها أحد، أو ألا يشعر بأن وراء كل مَشاهد الرحمة هذه مرحمةً واسعةً تحيط بكل شيء وتقود هذه الجوقة ذات الأسرار. فويل لأرواح تعيسة لا تعي شيئًا من هذه الأخبار.

إن الإنسان مسؤول تجاه كل هذه الأحداث، ومكلف بأن يحفِّز شعوره ويستحثّ إرادته ويدفع إدراكه وتفكيره جميعًا ليستوعب هذه الرحمة الواسعة، ويضيف إليها من أنفاسه الحرّى نغماته الذاتية. إنه مكلف بإبداء جانب الرحمة تجاه المجتمع الذي يعيش فيه، والإنسانيةِ التي ينتمي إليها، بل تجاه كلِّ الكائنات الحية، باعتبارها دَينًا إنسانيًّا يدين به.

فبرحمته للآخرين يسمو في هذا الطريق ويرتقي، وبجوره عليهم وظلمه لهم وقسوته معهم يصبح محتقَرًا مَهينًا ووصمةَ عارٍ في جبين الإنسانية. فقد غفر الله لبغيّ سقت كلبًا يقاسي شدة العطش وارتقت إلى الجنان، وعُذّبتْ امرأة حبست هرة حتى ماتت جوعًا كما ورد في كلام أصدق القائلين ﷺ. ارحموا الآخرين تنالوا المرحمة، فاليد التي ترحم في الأرض ستتلقى ألف بشارة من عوالم ما وراء السماوات.

لقد أدرك أجدادنا هذا السر فأشعَلوا آلاف مواقد المرحمة في كل ناحية، واجتازوا حدود الإنسان فأسسوا لحماية الحيوانات ورعايتها جمعياتٍ تدل على أن شعور الرحمة العميق قد صار سجية لهم وطبعًا.

ومن يدري، لعل عصفورًا كسير الرِّجل أو لقلقًا مهيض الجناح، وقع في طريقِ واحدٍ من أبطال الرحمة هؤلاء فوخز ضميره، وألهمه أن يؤسس مأوى للطيور الغربية المهاجرة التي عجزت عن مواصلة هجرتها على

hiragate.com

غرار دار المسنين لدى بني الإنسان.

ليتنا نستطيع أن نرحم إنساننا كما كان أجدادنا يرحمون الكائنات، ولكن هيهات! إننا لم نحرم أنفسنا من الرحمة فحسب، بل أهدرنا أجيالنا ودمّرنا أبناءنا أيضًا؛ فقد تركناهم فريسة للإهمال الشديد ونزعنا منهم مشاعر الرحمة. أجل، إننا نحن السبب الحقيقي وراء آلاف الحوادث الخانقة والجوّ الاجتماعي الذي لم يعُد فيه العيش ممكنًا.

ومن جانب آخر، فاستخدام الرحمة في غير موضعها وإساءة استعمالها، لا يقلّ عن القسوة ضررًا بل هو أشدّ وأقبح؛ فإذا كانت الرحمة في موضعها ماء الحياة وإكسيرها، فإنها في غير موضعها سمٌّ زعاف وزقّوم علقم. والمهم في هذا الباب هو إدراك هذا التركيب، فالأكسجين والهيدروجين إذا تَرَكَّبَا بنسبة معينة، نتج عنهما أهم عناصر الحياة، وإذا اختلت النسبة أو انفصل أحدهما عن الآخر، عاد أحدهما إلى طبيعته الحارقة والآخر إلى محترق، لذا ينبغي أن يكون الإنسان على دراية بمقدار ما يبديه من الرحمة، ومدى استحقاق من يرحمه بهذه الرحمة.

إن التودد إلى وحش جائع طمعًا في رحمته، يزيد من شهيته للافتراس، ثم يطالب بأجرة أنيابه ومخالبه بعد أن يفتك بك. فالتودد إلى أهل الجور قد يغريهم بمزيد من الاعتداء، لذا لا رحمة بمن يتلذذ كالأفاعي بنهش الآخرين، إن رحمة هؤلاء تعني تسليم مصير العالم لأفاعي الكوبرا.

إن الرحمة بمن تلطخت يداه بالدماء، وتعفر وجهه بالدماء، وفاض قلبه وتفجرت عيونه بالدماء، أي جمع في نفسه بين الجنون والدموية، ليس إلا منتهى القسوة تجاه كل مظلوم. فمثله كمن أشفق على الذئاب ولم يلتفت إلى حق الحِملان، قد يُسعد ذلك الوحوش لكنه يملأ الأقطار نحيبًا وأنينًا. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة "سيزنتي" التركية، العدد: ٢٢ (نوفمبر ١٩٨٠). الترجمة عن التركية: أجير أشيوك.

بين صعود وسقوط

في الناس أقلام تصعد بهم نحو العُلا،
تنفح القلوب لحنًا شجيًّا من السما،
وفي الناس أقلام تهوي بهم في لظى،
تضخُّ عليهم زفتًا ووحلاً مُنتِنا.

***

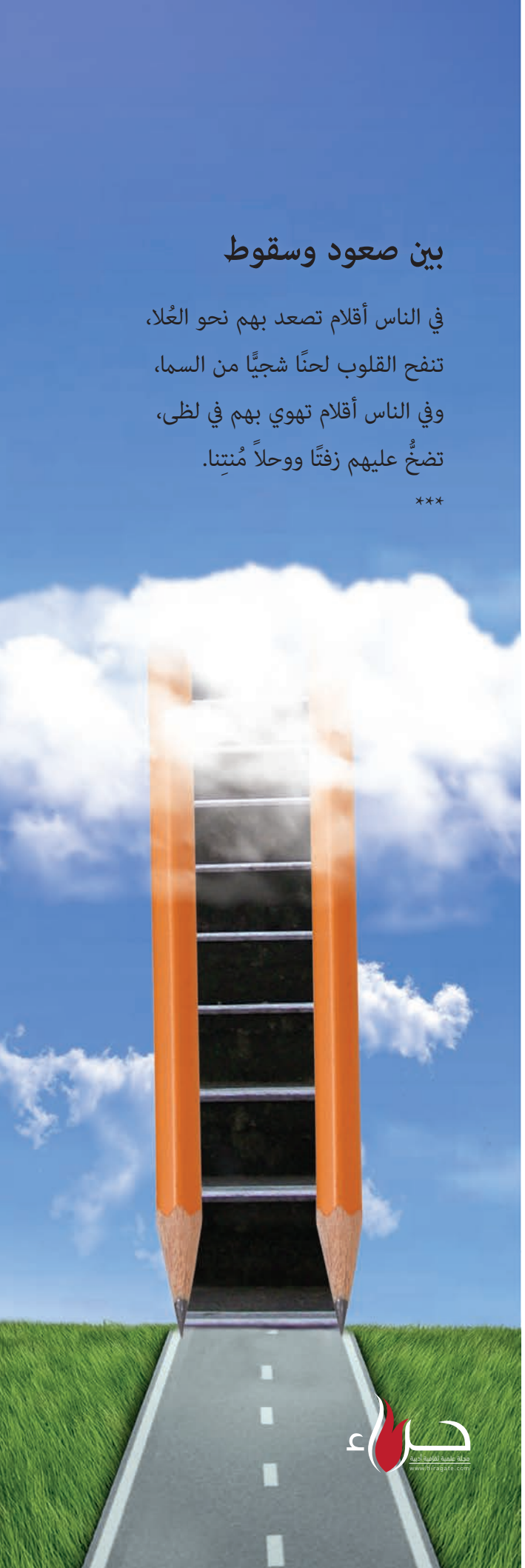

أ.د. عرفان يلماز*

حديث الضفدع

مرحبًا أيها الإنسان.. أنا الضفدع.. اسمح لي بدايةً أن أشكرك على منحك لي فرصة أصحح بها صورتي التي تشكّلتْ وترسخت في ذهنك، ثم أغيّر نظرتَك الاشمئزازية صوبي لسبب لا أعرف مغزاه حتى هذه اللحظة! لو تأملت قليلاً فستدرك حتمًا أنني لست قبيح الشكل والهيئة كما تظن، بل فيّ من العجائب والبدائع ما لا يخطر على بال. كلّي فخر واعتزاز أنْ جعلني ربي إحدى النوافذ التي تطل على أسمائه الإلهية في هذا الكون المديد. ولكن لا بأس.. استمع إلى قصتي التي سأحكيها لك أولاً، ثم احكم بما تشاء.

المعروف -عزيزي الإنسان- أن الحيوانات تعيش إما على اليابسة وإما

ضفدع الشجر

في الماء، بينما وهبني ربي النعمتين معًا؛ فأنا أتمتع بخصائص بيولوجية وفسيولوجية تمكنني من العيش على اليابسة وفي الماء العذب في آن واحد ودون أي صعوبة، كما منحني ربي ساقين خلفيتين طويلتين تتمتعان بأصابع مترابطة بأغشية رقيقة تساعدني على السباحة، وكساني جلدًا ناعمًا أملس يسهّل على رئتي عملية التنفس تحت الماء.

التسلّق على الأشجار

معظمكم يعرف نوعنا المسمى بـ"ضفدع البرَك" (Rana Ridibunda) الذي كثيرًا ما تسمعون نقيقه في البرك والمستنقعات، وثمة أنواع كثيرة لنا تتحلى بخصائص متميزة وأعضاء متنوعة وفقًا للمحيط الذي تعيش فيه؛ فمثلاً، "ضفدع الشجر" (Hyla Arborea) الذي يقضي معظم أوقاته على أوراق الشجر، يملك أقدامًا غشائية مزوَّدة بأقراص لاصقة عريضة في مقدمة أصابعه، تساعده على التشبث بأوراق الشجر والتسلق عليها. أما نوعنا "ضفدع الأرض" فيمتاز بأقدام قوية على شكل نتوء يستخدمها كمجرفة في حفر الأرض ليدفن نفسه ويختبئ تحت التربة للاستجمام والراحة، أو للحفاظ على نفسه من المخاطر.

نحن الضفادع لا نأكل الجيفة والأجسام المتحللة، بل نصطاد المتحركة فقط كالديدان والحشرات، والسبب في ذلك أننا لا نملك القدرة على رؤية الأجسام الهامدة.

الضفدع الحاضن للبيض

حالتان لا نقدر على تحمّلهما نحن الضفادع، الأولى الملوحة، والثانية الجفاف. لذلك لا نقترب من مياه البحر المالحة أبدًا، بل نسعى إلى العيش دائمًا بالقرب من المياه الحلوة العذبة. أما في المناطق الحارة المهيمن عليها الجفاف، فنلجأ إما إلى الأحجار الرطبة لنتفيأ تحتها، أو إلى جذور الأشجار الخضرة، أو إلى أوراق الشجر الطرية المتساقطة على الأرض.. نفضل الاصطياد ليلاً لنتجول براحة بالٍ دون قلق من جفاف جلدنا، طبعًا أستثني من ذلك زملائي الضفادع الذين تعيشون داخل المياه.

سمٌّ قاتل

لقد زوّد خالقنا الرحيم أنواعنا التي تعيش على اليابسة بجلد سميك مغطى بالثآليل يحميها من الجفاف. ولكن أنصحك عزيزي الإنسان، أن لا تقترب كثيرًا من هذا الجنس، لأن السمّ الذي ينتجه جلدها أكثر مما ننتجه نحن الضفادع المائية، إنه سمٌّ مؤلم جدًّا، ورائحته كريهة للغاية. أراك ارتعبتَ! ولكن لا حيلة له سوى هذا السلاح لحماية نفسه من المخاطر ومواصلة حياته المكتوبة له في هذه الدنيا. إن مَن وهب الأسد مخالب، والثيران قرونًا، والقنافذ لباسًا من شوك.. منحنا نحن أيضًا هذا النوع من السلاح كي لا نكون فريسة للغادي والرائح.

وهناك نوع آخر يسمى "ضفدع سهم السمّ" (Dendro-bate sp)، وهو يملك سمًّا قويًّا يؤدي إلى الموت في كثير من الأحيان، حتى إن بعض القبائل في أمريكا الجنوبية،

hiragate.com

قاموا بوضع هذا السم على رؤوس الأسهمة والرماح أثناء صيدهم واقتناصهم الفرائس. كما قام بعض العلماء والباحثين بفحص هذا السم ودراسته، إلى أن استخرجوا منه مضادًّا حيويًّا للأورام قوي التأثير.

اعلم عزيزي الإنسان أني أحظى -أنا الضفدع المائي- بمكانة مرموقة داخل نظام التوازن البيئي؛ حيث أقوم بدور ضبط عدد الحشرات والبعوض والديدان في البيئة من خلال أكلها والتغذّي عليها، فأمنع نموَّها المفرط من جانب، ومن جانب آخر أقدِّم نفسي غذاء للطيور والأفاعي وبعض الثدييات من الحيوانات، فأكون قد أديت دوري في هذا التوازن فلا أتكاثر بعشوائية، ولا أُحدِث اختلالاً في النظام العام؛ أي أتغذى من جانب، ومن جانب آخر أضحِّي بنفسي غذاءً للآخرين من أجل الحفاظ على التوازن البيئي في الطبيعة. سأضرب لك مثلاً حتى يتضح الأمر جيدًا؛ إن التطور الصناعي المفرط في بعض الدول، أدى إلى تلوث المياه ومن ثم إلى موت زملائنا، الأمر الذي أخلى الميدان للبعوض ليزداد عددًا ويتحوّل إلى مخلوق مزعج يحمل أمراضًا خطيرة. فهل فهمتَ الآن قيمتنا نحن الضفادع في توازن الطبيعة، ووعيتَ مدى الفائدة التي نقدّمها إليك أيها الإنسان دون أي مقابل؟

تكاثر داخل الماء

نحن والأسماك ننمو ونتكاثر داخل الماء؛ نضع بيوضنا في الماء لنمنعها من الجفاف ونُبقيها على قيد الحياة. وقد غُطِّيت هذه البيوض بطبقة جيلاتين شفافة كي تحميها من المخلوقات الأخرى. وحين يحين الوقت تفقس هذه البيوض داخل الماء وتخرج اليرقات منها بجسم كبير وذيل طويل من دون أرجل وعنق، وهذا ما يجعل الأطفال يظنونها سمَكًا.

إذا كنتم -أنتم البشر- تقضون مرحلة التطور الجيني في أرحام أمهاتكم، فصغارنا نحن الضفادع تقضي هذه المرحلة سابحةً في الماء. أما التحوّل أو المرحلة الانتقالية عندنا فتستغرق شهرين تقريبًا، وذلك وفقًا للنوع، حيث تبدأ أرجلنا الخلفية بالظهور أولاً ثم تنمو الأماميات، وتختفي الخياشيم وتتكون رئتنا، بعدها نخرج مباشرة للسطح ونبدأ الحياة على الأرض.

هناك بعض الناس يؤيدون نظرية داروين ويدّعون أننا انحدرنا من الأسماك ثم تحوّلنا -مع الزمن- إلى زواحف! لكن هذا كلام لا أصل له؛ فنحن الضفادع نتمتع بأرجل وأصابع خلافًا للأسماك التي تتمتع بالزعانف فقط، ثم قلبنا نحن يتكون من ثلاث حجرات، بينما قلب الأسماك فيتكون من حجرتين فقط. ثم إننا نملك رئة تساعدنا على التنفس أثناء وجودنا على الأرض، أما الأسماك فلديها خياشيم تتنفس من خلالها في الماء. بالإضافة إلى أن جلدنا نحن الضفادع أملس، وجلد الأسماك مغطى بقشرة قاسية. ثم تم نحن مزوّدون بعضلات متميزة في الذراعين والساقين تمكّننا من المشي والقفز والهروب عند الشعور بالخطر. ونتمتع

ضفدع البرك

الضفدع رشيق

hiragate.com

ضفدع أصفر البطن

كذلك بأعصاب مختلفة تمتد ضمن شبكة داخل هذه العضلات، وهي تختلف كل الاختلاف عن أعصاب وعضلات الأسماك.

خبرة في الصيد

هل تعلم عزيزي الإنسان، أننا نحن الضفادع نملك لسانًا يبلغ نصف طولنا؟ إنه سلاحنا الوحيد لاقتناص الفرائس، حيث أُعدَّ من مادة لزجة لصيد الذباب والحشرات، وهو مطوي داخل فمنا، مثبت من الأمام وسائب من الخلف بعكس لسانكم أنتم البشر، نطلقه بسرعة فائقة على الفريسة لنصطادها ونبتلعها بهناء. كما أن لسان بعضنا كلسانكم، مثبت من الخلف سائب من الأمام. وهناك نوع لا يملك لسانًا أبدًا.

لكل واحد منا طريقته الخاصة في الدفاع عن نفسه؛ فمثلاً، الضفدع أحمر البطن، والضفدع أصفر البطن (Bombina bombina, B.Variegata) ينقلبان على ظهرهما ويبدوان كالميت حالَ شعورهما بالخطر. أما الضفدع رشيق (Rana dalmatina) فإنه صاحب الرقم القياسي بيننا في القفز، حيث زُوِّد بساقين طويلتين منذ اليوم الأول من ولادته، يقضي حياته تحت أوراق الشجر الخضراء. أما أنا، فأملك قدمين غشائيتين تمكّناني من العيش في الماء. وأما بعض الضفادع المُثألة التي تعيش على اليابسة والتي تنتسب إلى فصيلة البوفو، فتفرز سمًّا

ضفدع سهم السم

مؤلمًا من الغدد النكفية المتموضعة وراء رأسها. وهناك نوع يتحلّى ببقعة كالعين الجاحظة على ظهره، عندما يشعر بالخطر يحدب ظهره قدْر ما يستطيع ويُظهر بقعة العين هذه بجلاء فيخدع العدو بها ويُرعبه.

وهناك نوع غريب يختلف عن باقي أنواعنا نحن الضفادع، وهو الضفدع الحاضن للبيض (Alytes obstetricans)؛ هذا النوع لا يترك بيضه في الماء مثل ما نفعل نحن، بل يلفّ البيض حول رجليه الخلفيتين ويجوّلها في الماء حتى تفقس وتخرج اليرقات منها، فيحفظها بذلك من التلف من جانب، ومن جانب آخر يوفر لها الأكسجين النقي الذي يلزمها تحت الماء.

عزيزي الإنسان، اسمح لي قبل الانتهاء من الحديث معك، أن أصحح خطأً عرفه الناس منذ القِدم وساروا عليه، وهو قولهم بأني أطلق الثآليل على يد الإنسان.. صدِّقني هذا غير صحيح.. وأنا واثق أنك إذا قمت بالتحقيق والتدقيق في هذا الأمر فسترى أن ما يقال هو افتراء عليّ وبهتان لا أصل له.

على كل حال فلا يسعني في هذا المقام إلا أن أشكرك الشكر الجزيل أن منحتني هذه الفرصة لأعرفك عن نفسي وأبرز لك الحقائق المكنونة في ثنايا خلقي.. اعتن بنفسك وتأمل جيدًا في هذا الكون لتجد حقائقه وتكتشف أسراره. طابت أيامك، وإلى اللقاء. ■

(*) باحث وأكاديمي تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

hiragate.com

الشيخ عبد الله بن بيه*

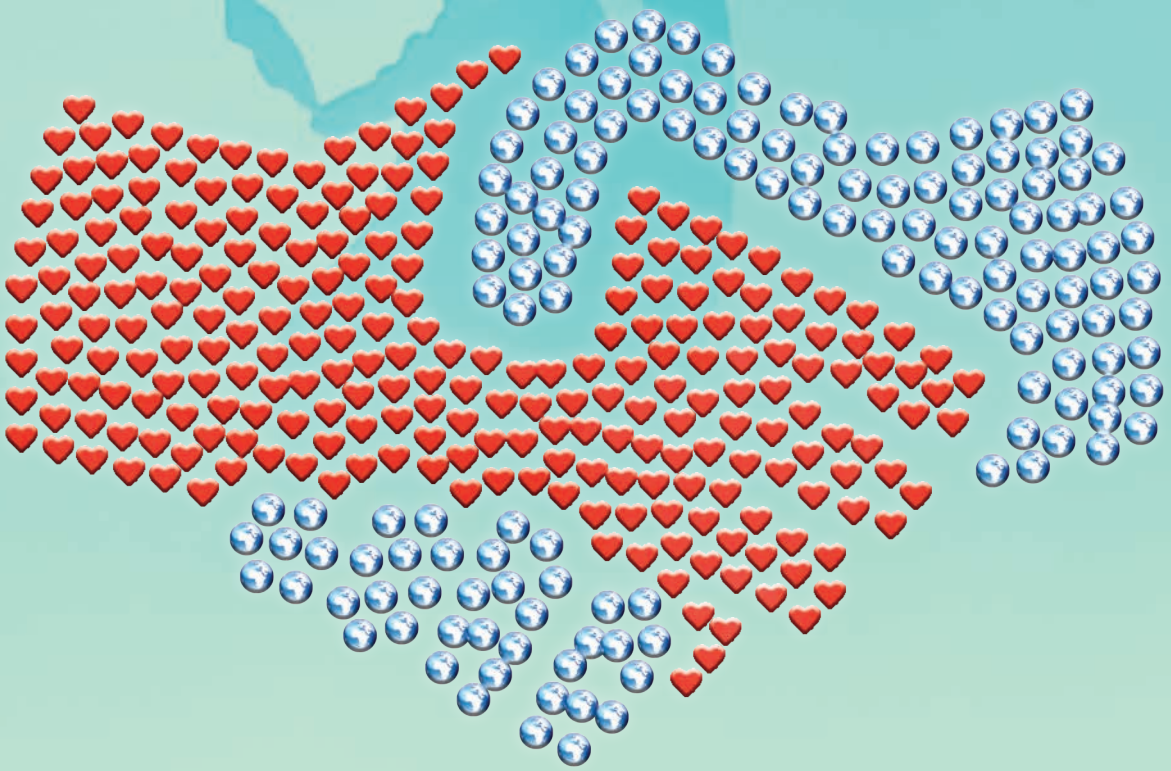

الخوف من الإسلام
رؤية علاجية(١)

ينبغي بادئ ذي بدء أن نؤكد أننا لسنا هنا في مقام محاكمة أو سياق مرافعة قانونية ولا حتى حقوقية حول ما يمسى بـ"الإسلامفوبيا"، لأننا إطفائيون يبحثون عن وسائل السلام والعافية للمجتمعات المسلمة والإنسانية العالمية. فذكر أسباب الظاهرة، لا يعني أننا نحاكم أناسًا آخرين قانونيًّا وأخلاقيًّا، إنما نبحث عن المقاربة الإيجابية التي تعيد الثقة بين المسلمين وغيرهم، والتي تجلي الصورة الحقيقية والصحيحة للإسلام.

ومع ذلك فإننا لا ندعي الوصاية على مواطني الدول الأخرى فيما يلجأون إليه من الوسائل القانونية المتاحة لهم، للتصدي لخطاب العنف والكراهية ولنيل حقوقهم، فلكل سياق خصوصيته، ولكل مجتمع تنزيلاته الملائمة لأطر نظامه العام.

إن بحثنا ليس بحثا تقليديًّا، وإنما هو تشخيص لتلمس العلاج لهذه الظاهرة من خلال رصد تمظهراتها وسبر عواملها. فما هي هذه التمظهرات؟ وما هي هذه العوامل والأسباب؟

التمظهرات

التمظهرات لا تخطئها العين، ولا يحتاج إبرازها إلى كبير عناء، فهي معروفة ليس فقط من خلال ما يكشفه الإعلام، بل بحسب الباحث أن يجدها بارزة وجلية على أعلى مستويات التصريحات الرسمية العالمية.

فتمظهرات الظاهرة تتمثَّل في نمو خطابات الكراهية، والتمييز التي بدأت تغزو المشهد العمومي في المجتمعات الغربية من أطرافه، من خلال تنامي حركات كانت إلى وقت قريب هامشية، كأحزاب اليمين المتطرف والأحزاب النازية الجديدة، والتي تبني خطابها الإيديولوجي على فرض التناقض بينها وبين الغير. مع الإشارة إلى أن الكراهية لم تعد خصيصة غربية، بل إن مناطق في العالم الشرقي أصيبت بلوثة الكراهية للإسلام والعنصرية ضد المسلمين من طرف بعض البوذيين وغيرهم.

لا شك أن هذه الأفكار قديمة بالجنس في الخطاب التقليدي للحركات الوطنية أو الشعوبية، ولكنها جديدة بالنوع في تشكلاتها الراهنة، حيث إن عنصر الجدة ومظهر الأزمة، هو تمكُّن الخطابات الإقصائية ذات النبرة العالية والتعابير الساخطة، من جذب قطاعات واسعة من الجمهور في دول كبرى لها إمكاناتها ومكانتها في العالم؛ فأصبحت هذه الخطابات تسهم في صناعة السياسات الكبرى في هذه الدول، فيما يتعلق بالهجرة وبتحديد الموقف من الأقليات المسلمة، بل وحتى في توجيه السياسة الخارجية أحيانًا.

على أن هذا المشهد المتفاقم، لا يمكن أن ينسينا المواقف الحكيمة لحكومات غربية ولأحزاب لها وزنها وثقلها، ولغالبية هيئات المجتمع المدني التي تصدَّت لخطاب العنف والكراهية ضد المسلمين بالمبادرات القانونية وحملات التوعية والتضامن.

ما هي الأسباب والعوامل؟

إن من شأن الظواهر البشرية، أنها ترجع إلى شبكة عوامل متعددة متداخلة ومتضامنة، وهذه العوامل منها ما هو موضوعي، ومنها ما هو ذاتي، ومنها الحقيقي، ومنها الوهمي. وهذا التعدد هو ما يجعل البحث في الظاهرة متشعبًا، ويلزم الباحث حين يعالج الظاهرة أن يسبُر شبكة الأسباب، ويفحص قوة تأثيرها، ليخلص إلى انتقاء العامل المهيمن الذي ينبغي أن يُخص بمعظم المعالجة.

وقد أحصى الدارسون عدة عوامل، لكل واحد منها نصيب في تشكيل بناء الظاهرة وتكوين الإشكالية المؤسسة لمفهوم الإسلاموفوبيا.

فمن الباحثين من أناط المشكل بأبعاده النفسية التي يوحي بها استعمال كلمة "رهاب" (Phobia) بما تحمله من دلالات وجدانية. ومنهم من أبرز العوامل الاقتصادية مشدِّدًا على سياق الكساد الذي تمر به الاقتصادات العالمية، ودور المنافسة الأجنبية في سوق العمل في تأزيم وضع البطالة وتدني مستويات الأجور. ويفضّل آخرون الحفر والكشف عن الجذور التاريخية للظاهرة، من خلال إبراز دور الذاكرة في صناعة التصورات النمطية السلبية، التي ما تزال موجودة في الذهنيات والوعي العمومي، وتؤطر البنية الاستباقية للبحث لدى بعض المستشرقين والباحثين.

باعتبار هذا الفكر من رواسب مرحلة تاريخية خلت، حيث نشأ في سياقات تاريخية تتعلق بالحروب الصليبية وحروب استعادة شبه الجزيرة الإيبرية، أو في سياق بسط أوروبا نفوذها الاستعماري على العوالم الأخرى وتهيؤها لاحتلال شمال أفريقيا.. ولنذكر خطاب "أرنست رينان" الذي ألقاه في "كوليج دي فرانس" في ٢٣ فبراير ١٨٦٢، حيث قال: "في هذا الوقت المناسب، إن الشرط الأساسي لتمكين الحضارة الأوروبية من الإنشاء، هو تدمير كل ما له علاقة بالسامية الحقة بتدمير سلطة الإسلام الثيوقراطية؛ لأن الإسلام لا يستطيع أن يعتبر إلا كدين رسمي، وعندما يختزل إلى وضع دين فردي فإنه سينقرض. هذه الحرب الدائمة التي لن تتوقف إلا عندما يموت آخر أولاد إسماعيل بؤسًا، أو يرغمه الإرهاب على أن ينتبذ في الصحراء مكانًا قصيًّا..

hiragate.com

إن الإسلام هو التعصب، إن الإسلام هو احتقار العلم، هو القضاء على المجتمع المدني، إنه سذاجة الفكر السامي المرعبة، إنه يضيّق الفكر الإنساني ويغلقه دون كل فكرة دقيقة، ودون كل عاطفة لطيفة، ودون كل بحث عقلاني".

إنه تصريح لا يحتاج إلى تفسير، وإن كل تعقيب من شأنه إضعاف النص كما يقول المستشرق الفرنسي المنصف "فنسان مونتاي".

ولكن الإنصاف يقتضي أن نؤكد أن هذا الخطاب كان يمثل فقط أفكار بعض النخبة في تلك الحقبة ولا يمكن أن نعممه. فالكثير من المستشرقين والباحثين المنصفين عارضوا هذا التناقض بين الإسلام والغرب، ومن أكثرهم إنصافًا المستشرق "توماس أرنولد" في كتابه "دعوة الإسلام"؛ فكما أن الإرهاب لا يمثل رأي المسلمين أجمعين، فكذلك خطاب الكراهية لا يمثل رأي الغرب أجمعه.

بدون أن ننفي العوامل الأخرى، نقول إن العامل المسيطر والسبب المهيمن هو العلاقة المزعومة بين الإسلام والإرهاب، وبما أن البعد التاريخي الذي يختزل الذاكرة التاريخية في البعد الصدامي، ويحاول البعض أن يؤسس عليه حتمية الصدام الحضاري، قد أصبح -رغم فعاليته- يتوارى وراء العامل المسيطر وهو مسألة الإرهاب، حيث انضاف خلال العقود الأخيرة إلى السخيمة التاريخية ركام حوادث تحولت إلى أحداث مدوية، افتات فيها أفراد على الغالبية العظمى من المسلمين، فصدَّق كهانُ صدام الحضارة ظنهم، وتحولت الكهانة إلى كارثة.

ومن المفارقات، أن المسلمين في الإرهاب ضحايا من جهتين، فإن أكثر ضحايا الإرهاب -من جهة- هم المسلمون أنفسُهم، ومن جهة أخرى يظل المسلمون هم المتهمين الدائمين في جميع قضايا الإرهاب. تلك التهمة الناشئة عن جهل بالإسلام وتحريف للمفاهيم.

تحدث "فرنسيس فوكوياما" عن الأيديولوجيات المجنونة، وعن الديانات المجنونة، وخلص إلى أنه كما ماتت الأيديولوجيات المجنونة ستموت الأديان المجنونة كذلك. وإذا اتفقنا معه في إمكانية أن تكون

إذا لم ندرك أبعاد صناعة التدين، فيمكن أن تنفرط وتتحول من رحمة إلى عذاب. وقد عانت المجتمعات المسلمة من صناع هذا النوع من التدين الذين حكموا بالجزئي على الكلي، وتجاهلوا الواقع، وقدموا فتاوى تتضمن فروعًا بلا قواعد، فجلبوا المفاسد وأحدثوا فوضى فكرية.

حراء

هناك أيديولوجيات مجنونة، فإننا لا نسلم له بوجود ديانات مجنونة، لكن ينبغي أن نقر أن صناعة التدين -التي هي صناعة بشرية- أحالت الدين -هو في أصله طاقة تصنع السلام- إلى طاقة تصنع منها القنابل المميتة المبيدة للبشرية المهلكة للحرث والنسل، حين جعلت الدين وقودًا لنزاعات في أصلها دنيوية وسياسية، وجعلته يتفاعل كيميائيًّا مع تاريخ متخيل معسكر، وهذا ما يعني أن صناعة التدين إذا لم نحسن إتقانها، ولم ندرك أبعادها، فإنها يمكن أن تنفرط، وتتحول من رحمة إلى عذاب.

وقد عانت المجتمعات المسلمة من صناع هذا النوع من التدين من أهل الثقافة المأزومة الذين حكموا بالجزئي على الكلي، وتجاهلوا الواقع وعاشوا في القواقع، فقدموا فتاوى تتضمن فروعًا بلا قواعد، وجزئيات بل مقاصد، تجانب المصالح وتجلب المفاسد، فخلقوا فوضى فكرية سرعان ما استحالت دماء مسفوكة رغم عصمتها، وأعراضًا منتهكة رغم حرمتها، وعمدوا إلى مجموعة من المفاهيم -كالجهاد، وكالولاء والبراء، وكتقسيم الدار، وكالجزية وأهل الذمة- فانحرفوا بها عن سياقاتها اللغوية والشرعية والتاريخية، وخرجوا بها عن مقاصدها، ونسفوا كل شروط النظر الفقهي فيها، ولبَّسوا على المُغرَّر بهم مضامينها، وقفزوا على كل عناصر منهجية التعامل مع المفاهيم والنصوص الشرعية.

أما في المجتمعات ذات الأغلبية غير المسلمة، فقد طفت على السطح ظاهرة الخوف من الإسلام، أو على الأصح التخويف من الإسلام، اعتمادًا على أحداث سيئة، أو اعتمادًا على الواقع المستشري في الكثير من المجتمعات المسلمة تنمّط صورة الإسلام والمسلمين، خاصة بعد تمكن الجماعات المتطرفة والمأزومة، من

hiragate.com

استقطاب شباب ولدوا في الغرب ونشأوا فيه، وإقحامهم في أتون الحروب التدميرية في منطقة الشرق الأوسط وغيرها، وإقدامهم على ارتكاب أعمال إجرامية في البلدان التي ينتمون إليها، سواء كانوا أصليين في تلك البلاد، أو من الأجيال الثالثة والرابعة من المهاجرين الذين هاجروا إليها.

تنميط صورة الإسلام والمسلمين

وتنميط صورة الإسلام والمسلمين مرده في تصورنا إلى مجموعة من العناصر منها:

أ- التصورات الزائفة عن الإسلام النابعة من الجهل به، والقاعدة تقول "من جهل شيئًا عاداه". فمن يعادي الإسلام، ينطلق من نفس المفاهيم التي تنطلق منها الفئة المتطرفة كالجهاد، والولاء والبراء.. وهذا التصور الزائف، مؤسس على مفاهيم اجتثت من سياقاتها اللغوية والشرعية والتاريخية، وبتنزيلها المنحرف أحدثت أذى وإضرارًا بالإسلام والمسلمين قبل غيرهم، وقبل الديانات الأخرى، وما تفجير المساجد والمعابد إلا دليل على ذلك. وهذا هو سبب الأسباب، وأس الأساس، الفكر المشوه، والثقافة المألوسة المأزومة. ولا يعدو الأمر أن يكون فهمًا خاطئًا وتصورًا منحرفًا لأفراد ومجموعات لا تمثل السواد الأعظم، ولا الرأي المعتمد.

ب- فكرة صدام الحضارات وصراع الأديان، واعتبار قيم الحياة الاجتماعية الإسلامية غير قابلة للتواؤم والتعايش مع غير المسلمين: وينظّر لها مفكرون وخبراء إستراتيجيون، وفاعلون سياسيون، ومؤسسات إعلامية وفنانون.. وهي قاعدة "صدام الحضارات" التي أعلنها "هانتغتون"، والتي ألحّ فيها على أن الصدام قائم منذ قرون وأنه لن ينحسر. وبذلك اكتملت الصورة التي دشنها "فوكوياما" بنهاية التاريخ وأعلن فيها انتصار الحضارة الغربية.

إن الإيحاء بحتمية الصدام نتيجة تنوع الحضارات، إنما هو دليل على فشل كل حضارة في أن تدرك أهمية الاعتراف بحق التنوع، وهو الحق الذي سنبني عليه رؤيتنا في العلاج، باعتباره أساسًا للحوار ووسيلة للتعارف.

جـ- سلبية بعض المجموعات المسلمة في المجتمعات ذات الأغلبية غير المسلمة، وتخوفها من الاندماج في المجتمعات المحتضنة لها، إما كرد فعل على واقع التمييز والكراهية، وإما لاعتبارات ترجع إلى فهم ضبابي لمسألة الولاء للدين والوطن الأم دون إدراك، لأن الولاءات لم تعد دينية، بل صارت ولاءات مركبة ومعقدة تتحكم فيها عوامل متداخلة لا تنفصل عن بعضها، وينظر إليها باعتبارها دوائر ومراتب بإمكانها أن تتواصل وتتفاعل بدلاً من أن تتصادم وتتقاتل.

إن المرعب في هذا الواقع، سواء تعلق بالتطرف الديني والمذهبي العقائدي، أو تعلق بظاهرة الخوف من الإسلام أنه يواكب فترة زمنية تمتلك فيها البشرية أسلحة دمار شامل في إطار نظام عالمي قائم على توازن الرعب مع غياب الضمانات الكافية لعدم استعمالها، وخروج بعضها عن مراقبة الدول وسلطتها.

وقد كنا من عهد قريب نسعى إلى إطفاء حرائق جسد المجتمعات المسلمة، لكن يبدو أننا في حاجة إلى العمل الشاق على إطفاء حرائق جسد العالم وخفض حرارته التي يزيد منها التنازع على السيادة في بعض المناطق، أو على الثروات الطبيعية والمياه، والمطالب الانفصالية، والجريمة المنظمة، والمجاعات، والهجرات الجماعية غير المقننة، دون أن ننسى مخاطر التلوث البيئي على المستوى العالمي، والحديث عن الهويات الدينية والمذهبية والعرقية التي انتفخت، وعن ذاكرة السوء التاريخية التي استيقظت تجر موكبًا من المتعصبين والأيديولوجيات المتحاربة في الشرق والغرب، في عالم معولم تشيع فيه الأفكار والثقافات المختلفة، وتروج فيه المبادلات الاقتصادية والابتكارات التكنولوجية، ومن المفارقات أن وسائل التواصل والمواصلات زادت الهوّة اتساعًا بين البشر بدلاً من أن تقرب العقول والأفكار. وكل ذلك يقدم أسئلة ويستدعي بحثًا عن الأجوبة.

هل يجوز للأديان أن تكون طرفًا في هذه الصراعات، تحش نيرانها حينًا، وتكون أداة فيها حينًا، وتخوف من بعضها البعض، أم ينبغي أن تجعل من نفسها المخلص المنقذ للإنسان والأوطان، فتكون عامل بناء لا هدم، عامل وقاية لا عدوى؟ هل من الضروري أن يبرز كل

hiragate.com

عصر "إسلاموفوبيا" خاصة به؟ هل من الضروري أن تنطبق على الواقع مقولة هيجل: "إن كل ما نتعلمه من درس التاريخ، أنه لا أحد تعلم من هذا التاريخ"، أم إنه ينبغي أن نتعلم من هذا التاريخ حتى يستقر السلم العالمي؟ أليس من الواجب تفعيل مقولة "هانس كيونج": لا سلام بين الأمم ما لم يكن هناك سلام بين الأديان؟

مواجهة ظاهرة الخوف من الإسلام

تترتب رؤيتنا العلاجية على طبيعة المعالجة الآنفة، وعلى ما جلّيناه من هيمنة العامل المتعلق بالإشكال الحضاري والديني، والذي يستبطن في عمقه سؤال الاختلاف والعلاقة مع الآخر، فيكون العلاج من جنس المضادات الحيوية التي ترتكز على مقاربات، منها مبادئ العلاقة الإنسانية في الإسلام. ومن عناصر الرواية الصحيحة للإسلام أن نعلم:

• أن الإسلام يعتبر البشر جميعًا إخوة، فيسدّ الباب أمام الحروب الكثيرة التي عرفها التاريخ الإنساني بسبب الاختلاف العرقي. والإسلام يعترف للبشر بحقهم في الاختلاف: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾(هود:١١٨).

• اعترف الإسلام للآخرين بحقهم في ممارسة دينهم، فسدّ الباب أمام الحروب الدينية التي كاد التاريخ البشري أن يكون مجرد سجل لها.

• اعتبر الإسلام الحوار والإقناع الوسيلة المثلى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥).

• اعتبر الإسلام أصل العلاقة مع الآخرين المسالمة التي تقدم على بساط البرّ والقسط والإقساط.

إننا نؤمن أن الاختلاف من نتائجه التعددية الدينية، ونؤمن أن التعددية الدينية في كل الأوطان اليوم صارت واقعًا عالميًّا، والقبول بهذه التعددية من خلال تنزيل مقصد التعارف وتفعيل المشترك، هو أمر تشهد له نصوص الدين الإسلامي. فإننا نزعم أنه لم يعرف التاريخ دينًا ولا أمة قبلت بالتعددية الدينية واحتوتها كالدين الإسلامي والأمة المنتسبة إليه، ولقد كانت "صحيفة المدينة" التي تأسس عليها إعلان مراكش لحقوق الأقليات الدينية في العالم الإسلامي، إطارًا ناظمًا لترسيخ ثقافة قبول الاختلاف والتعددية الدينية والعرقية في المجتمع الواحد. كتاب

إننا نؤمن أن الاختلاف من نتائجه التعددية الدينية، ونؤمن أن التعددية الدينية في كل الأوطان اليوم صارت واقعًا عالميًّا، والقبول بهذه التعددية من خلال تنزيل مقصد التعارف وتفعيل المشترك، هو أمر تشهد له نصوص الدين الإسلامي.

يصرح بالتعددية الاختيارية، ويبني العقد على أساسها متجاوزًا ما يمكن أن تسببه من عوائق، بتقديم مصالح التضامن والتعاون في شكل حقوق وواجبات.

وكان من أهم ملامح حقوق الإنسان في الصحيفة الاعتراف بالتعددية، وإقرار حرية العقيدة بإقرار أهل كل معتقد على ما يعتقدونه، وأسست لقاعدة المساواة في الحقوق والواجبات ضمن بنية المجتمع المدني، حين نصت على مكونات الأنساق البشرية والقبلية والمساواة بينها ضمن الإطار الذي تستقيم به سيرورة المجتمع؛ بحيث كل جزء منها مساو للأجزاء الأخرى ومكافئ لها في ما يقبل التكافؤ، لا مكان فيها لمنطق التابع والمتبوع.. وبينت واجبات كل جزء تجاه مكوناته أولاً، وثانيًا تجاه باقي المكونات المشكلة لعموم المجتمع ضمن نسق العدل والمصلحة سلمًا وحربًا، ثم ثالثًا تجاه المكونات المحيطة به، استيعابًا من الصحيفة للتعدد الديني والعرقي والقبلي ضمن سياقين مرتبطين هما: سياق العدل كأدنى حد مطلوب، وسياق البر الذي هو أعلى المراتب المطلوبة في التعامل مع الإنسان، والذي يقتضي مع مقام العدل ألا يكون هناك حديث عن أقلية وسط وطن، وإنما الحديث عن أمة واحدة. ■

(*) أحد علماء الأمة المعاصرين، ورئيس منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة ومؤسسة الموطأ في "أبو ظبي". تم اختياره من قبل جامعة جورج تاون كواحد من أكثر ٥٠ شخصية إسلامية تأثيرًا في العالم للأعوام ٢٠٠٩-٢٠١٦م / موريتانيا.

الهوامش

(١) هذا المقال جزء من الكلمة التأطيرية لمنتدى تعزيز السلم ٢٠١٧ المعنونة بـ"السلم العالمي والخوف من الإسلام".

hiragate.com

السنوسي محمد السنوسي*

الغرباء

جدائل من الوعي والمعاناة

١

"الغربـاء" ليـس كتابًـا وإنمـا تجربـة، وتجربـةٌ تقطـر وعيًـا ومعانـاة.. وليـس سطورًا من حِبر ولا كلمات من حروف، وإنما أشـعة من نور، وجدائلُ من فهم وأفكار ومن علم ونبضات ونسمات.

"الغربـاء".. ليـس دعوة للغربة والاغتـراب، أو العزلة والاعتـزال -كمـا قد يُفهم من عنوانه للوهلة الأولى- بل هو سِفْرٌ في الانبعاث والتجـدد والتجديد والاشـتباك.. الاشـتباك مـع أشـواق الـروح، وآفاق العقـل، وحاجات المجتمـع.. مـع عِبَر الماضي وتطلعات المستقبل، فضلاً عن إلحاحات الحاضر.

هو كتاب جديد للأستاذ فتح الله كولن، يضم أربعين مقـالاً تناثـر شـذاها فوَّاحًـا عبـر سـنوات مختلفـة وفـي مناسـبات متعـددة على صفحـات مجلة "حـراء" العربية، ومن قبلُ مجلة "سيزنتي" التركية.

وقـد صـدر الكتاب قبـل الأزمة الأخيـرة، ومـع ذلك

جاء دالاً عميق الدلالة على كيفية التعامل مع المحن، وتجاوز العثرات والعوائق، بجانب ما يمثله من دروسٍ في الوعي والسعي وفي العزم والهمّ والهمم.

ويمكن القول في البداية وبلا مبالغة: إن أفضل وسيلة لعرض الكتاب هو قراءته كاملاً، وإعادة نشره بلا إيجاز.. فأسلوب بيانه الراقي وعميق أفكاره العالية، يصبح معهما التلخيصُ نوعًا من الإخلال لا شك يقع فيه من يحاول ذلك.

والأمر هكذا، فقد رأيت أن أقف مع قضايا خمسٍ عالجها الكتاب في مواضع متفرقة منه، وهي قضايا أراها تمثل أسئلة ملحة راهنة، ومن المهم أن نرى كيف عالجها الكتاب. وتتمثل هذه القضايا في كيفية تصحيح مفاهيم الغربة والاغتراب.. وضبط العلاقة بين القلب والعقل وما يتصل بهما من أشواق وأفكار.. وأهمية الانتقال من العشوائية إلى التخطيط.. والجمع بين الاعتزاز بالذات والاقتباس المبصِر دون انغلاق أو تقليد أعمى.. إضافة إلى التوازن بين الاستغراق في الحاضر ومعايشته من جهة، واستشراف المستقبل والاستعداد له من جهة أخرى.

بين الغربة والاغتراب

"الغربة" مفهوم يشير إلى فجوة حاصلة مع المحيط الذي يحيا فيه المرء، سواء أكانت فجوةً معنوية تتمثل في شيوع أوضاع لا تستقيم مع المنهج المرسوم، أم فجوةً جغرافية تَفصِل المرء عن ذويه ومحبيه.

وقد استخدم النبي ﷺ هذا المفهوم في بُعْده المعنوي كما في الحديث الصحيح: "بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء" (رواه مسلم). وزادت بعض الروايات تعريفًا بهم فوصفتهم بأنهم: "الذين يُصلحون إذا فسد الناس".

ويستلهم الأستاذ "كولن" هذا المعنى المتميز لمفهوم "الغربة"، فيوضح أن "الغربة" ليست اغترابًا أو ابتعادًا عن المجتمع -سواء أكان الابتعاد بالروح أم بالجسد- بل هي التحام بالمجتمع لشدِّه إلى الينابيع، ولإعادته إلى الجادة، ولدلالته على الهدى.. فالغربة عن المجتمع لا تدفع للاغتراب عنه واعتزاله، وإنما تدفع لتقديم المزيد من الجهد والعطاء لإزالة هذه الفجوة التي تجعل

إذا كان كتاب "الغرباء" يرسم الطريق للغرباء إصلاحًا ودعوةً وبذلاً، فإنه ينبّه على أن هذا الطريق لا يجوز أن يكون معبرًا للعشوائية والفوضى، بل يجب أن يتخذ من التخطيط والتدبير منهجًا راسخًا، حتى يمكن أن يحقق الآمال المرجوة.

المصلِحين "غرباء" عن مجتمعهم، فيغدو المجتمع كله سواءً؛ في الصلاح والإصلاح.

فإذا كان قَدَر الدعاة أن يكونوا غرباء عن مجتمعهم في فترة من الفترات، فلا يجوز لهم الاغتراب عنه وهجره، بل هذه الغربة دافعةٌ للعمل على محوها، وليس تعميقها بالاغتراب والهجر.. كمن يرى نقاطًا سوداء في ثوب أبيض فيدفعه ذلك إلى إزالة هذه النقاط -بغسله وتطهيره- وليس إلى تركها فتكثر وتتجذّر ويصعب محوها بعد ذلك.

إن "الغرباء" كما يبين الكتاب: "ينتشرون على أبواب المجتمع كل يوم، حاملين معهم باقة من أفكار مباركة ورؤى سامية، يَمنحون المجتمعات الميتةَ حياة، ويبعثون فيها قيمًا فقدتها من جديد، يطرقون الأبواب مرة بعد أخرى دون كلل أو ملل، يبثّون مواجيد قلوبهم، ويفرغون إلهامات أرواحهم ثم يعودون".

طوبى وألف طوبى للغرباء!.. بشرى وألف بشرى لهؤلاء الذين يتنفسون أملاً، وينشرون أمنًا وسكينة وسلامًا، ناسين ملذاتهم الذاتية من أجل سعادة المجتمع وطمأنينة الأمة، في زمن تلتهم فيه نار الفتنة والفساد الأخضر واليابس.

ثم هو يحذِّر من نوع آخر من الغربة أو الغرباء يمكن أن نسميه بالاغتراب أو المغتربين، ويصفهم الكتاب بـ"البؤساء".. هؤلاء الذين "ابتعدوا كل يوم خطوة عن ذاتهم وإنسانهم وثقافتهم فأضحوا أجانب منكَرين.. هؤلاء يشبهون غرباءنا حزنًا ومكابدة واضطرابًا، لكنهم متهافتون، متهدّمون، يائسون، من الإيمان محرومون.. إذا بحثتَ عن حياة قلبية أو روحية لهم، فهيهات أن تجد شيئًا من ذلك. لا صوت لحركة، ولا بصيص لنور، ولا

hiragate.com

بارقة لأمل.. أيام هؤلاء أشد ظلمة من لياليهم، ولياليهم مقابر حالكة السواد". إذن، الكتاب في صلبه وخلاصاته، يرسم طريق الغرباء؛ إصلاحًا ودعوة وأملاً وبَذْلاً، وينأى بالمصلحين عن طريق المغتربين اليائسين السوداويين.

بين القلب والعقل

لطالما أثير النزاع بين اتجاهين، ينحاز أحدهما للقلب وعاطفته وأشواقه، ويميل الآخر للعقل وضبطه ودقته وميزانه.. فيما عرف في تراثنا بأهل الباطن والظاهر، أو المتصوفة والفقهاء. وقد خسر الفكر الإسلامي كثيرًا جرّاء هذا النزاع الذي كنا في غنى عنه. فكما أن الإنسان روح وجسد، عاطفة وفكر، قلب وعقل؛ فالإسلام قلب نقي يحلِّق لتلبية أشواق الروح، تمامًا كما أنه عقل ذكي يضبط الفكر والتصورات، ويزن حركته في الوعي والسعي بميزان دقيق لا يعرف الاختلال ولا الجنوح ولا الاغتراب.

وكتاب "الغرباء"، بمقالاته المتعددة ينضح بهذا الفهم الدقيق لأهمية كل من القلب والعقل معًا، ولضرورة الجمع بين عوالمهما في غير شطط ولا جمود.

يرى الأستاذ كولن أن إذكاء القلب بإحياء الإيمان وتقويته فيه، هو المدخل لعمل جاد يروم تحصين الأفكار والمشاعر والثغور، فيقول: "يتعرض الإيمان والإسلام والقرآن اليوم إلى هجوم وانتقادات علنية ومباشرة، وتثار الشبهات حولهم. لذا، كان من الواجب أن تتوجه الجهود جميعها نحو نقاط الهجوم هذه؛ لتحصين الأفكار والمشاعر الإسلامية لدى الأفراد، وإنقاذ الجماهير من حياة سائبة لا هدف لها، وربطهم وتوثيق صلتهم بالأفكار والأهداف العليا. ولا يمكن إشباع هذه الحاجة وإنقاذ الأفراد من اللهاث وراء البحث عن أهداف أخرى، إلا بتقوية الإيمان في القلوب من جديد، بكل ألوانه وزينته وجماله وأسلوب خطابه، أي توجيه الإنسان إلى الحياة الروحية والقلبية من جديد".

ومع هذا التأكيد على إحياء القلوب وتعميرها بالإيمان، تأتي الدعوة إلى تفعيل العقل، واعتبار ذلك من ضرورات الإيمان في الفهم الصحيح؛ لأن "الأرواح التي نذرت نفسها لرضا الحق تعالى، لا تعيش أي فراغ في حياتها العقلية والمنطقية نتيجة توحيد قبلتها، بل تراهم منفتحين على الدوام على المنطق والعلم، يعدون هذا من ضرورات الإيمان الحقيقي".

ويدعو الكتاب إلى عقد صلح بين العقل والقلب، وإنهاء عداء بينهما جرى لا موجب له: "ومن يدري؟ لعل صلحًا بين العقل والقلب يتأسس في المستقبل القريب بفضل هؤلاء المخلصين الذين نذروا أنفسهم لفكرة الإحياء والبعث؛ فيكون كل من الوجدان والمنطق بُعدًا مختلفًا للآخر، وينتهي النزاع بين المادي والميتافيزيقي، وينسحب كل منهما لساحته، ويجري كل شيء في طبيعته وماهيته، يعبِّر عن نفسه وعن صور جماله بلسانه، ويكتشف التناغم بين السنن التشريعية والنواميس التكوينية من جديد، ويشعر الناس بالندم على ما جرى بينهم من خصام وعداء لا موجب له".

فهذه المصالحة المرجوّة، شرط أساس للانبعاث المترقَّب بعد خمود طويل كما يقرر الأستاذ كولن: "وإذا كان الانبعاث الذي نترقبه -بعد هذا الموت الطويل- هو التحقق في الإحساس والتفكير والحياة القلبية والروحية بـ"أصالتنا الذاتية" فذلك يستوجب منّا مراجعة جادة لما نحن عليه وما نتطلع إليه من غايات عظيمة لنوفِّق بينهما. إذ إن "قانون العلّيّة" يقتضي مناسبة ضرورية بين انتظاراتنا الكبيرة وأدائنا الراهن. لذا، فإن حمل تطلعات جليلة كهذه، ليس من شأن جَهلة لا نصيب لهم من "العلم والمعرفة"، أو بؤساءَ لا يملكون "غاية سامية"، أو عُطّلٍ لا يحملون بين جوانحهم "همّ قضية"، أو محرومين جديرٌ بهم وصفُ "فقراء الحكمة"".

بين العشوائية والتخطيط

إذا كان الكتاب يرسم الطريق للغرباء إصلاحًا ودعوةً وبذلاً، فإنه ينبّه على أن هذا الطريق لا يجوز أن يكون معبرًا للعشوائية والفوضى، بل يجب أن يتخذ من التخطيط والتدبير منهجًا راسخًا، حتى يمكن أن يحقق الآمال المرجوة.

وغياب التخطيط آفة لطالما ابتُلِي بها المسلمون في عصور تراجعهم الحضاري، مبرّرين ذلك لأنفسهم بقشرة من التوكل المغلوط -أي التواكل- وبِفَهْم خاطئ للقَدَر وعلاقته بحرية الإنسان وإرادته.. إن من يرضى لنفسه

hiragate.com

ذلك، يبدو نشازًا من كَونٍ ينشد لحن النظام والانتظام.

فيقرر الكتاب أننا "إذ نسير نحو مستقبل حافل بتحولات متلاحقة وتقلبات متتالية، فإنه من الأهمية بمكان الحفاظ على روح الأمة وهويتها الذاتية، وإقرار الفرد والجماهير على محور التعقّل والتبصّر والاتزان في التفكير والتخطيط والتدبير، وعدم إتاحة الفرصة لأي نوع من أنواع التفكير الفوضوي والسلوك الاستفزازي الذي من شأنه أن يثير الحشود الجماهيرية إلى تصرفات عشوائية مجهولة العاقبة".

واليوم إذا كنا نفكر في غدنا، ونأمل في الوصول إلى المستقبل ونحن ننبض بالحركة والحياة؛ فعلينا ألا ننسى أبدًا أن الطرق لا تقطع إلا بالمسير، وأن بلوغ الذرى لا يكون إلا بالعزم والإرادة والتخطيط.

بين التقليد الأعمى والاقتباس المبصِر

في هذا المحور تَطرح إشكالية العلاقة مع الغرب نفسها وبإلحاح؛ حيث ما فتئ سؤال النقل والاقتباس يمثل أحد السؤالات المعاصرة التي يكثر الجدل حولها؛ بين مانع بإطلاق، ومبيح بإطلاق، ومجيز فيما تجوز المحاكاة فيه.

في هذا المحور تَطرح إشكالية العلاقة مع الغرب نفسها وبإلحاح؛ حيث ما فتئ سؤال النقل والاقتباس يمثل أحد السؤالات المعاصرة التي يكثر الجدل حولها؛ بين مانع بإطلاق، ومبيح بإطلاق، ومجيز فيما تجوز المحاكاة فيه.

ولا أحد يستطيع أن يزعم أن حضارة ما تبدأ مسيرتها من الصفر. فمثلما أن الإنسان لا يولد مكتملاً، ولا يعيش منعزلاً، ولا يمكنه أن يحيا إلا وسط مجتمعه ومع ناسه، ويتعلم معهم تدريجيًّا، فكذلك الحضارات، تتبادل الخبرات ولا تنعزل، وتتناقل التجارب في تراكم وتكامل وإنْ تمايزت بعناصر ذاتية تستمد منها سمة الاختلاف عن الآخرين.. فالاختلاف مدعاة للتكامل لا التناحر كما يقرر الفهم الصحيح.. المهم، أن يكون لدينا ميزان دقيق لتمييز ما يمثل قَسَمَةً خاصة بنا -كما أن للآخرين قَسَمَاتهم الخاصة بهم- وبين ما يمثل مشتركًا عامًّا نافعًا للجميع، بحيث يجوز فيه النقل والإفادة وتراكم التجارب وتبادل الخبرات.

إذا كان قَدَر الدعاة أن يكونوا غرباء عن مجتمعهم في فترة من الفترات، فلا يجوز لهم الاغتراب عنه وهجره، بل هذه الغربة دافعةٌ للعمل على محوها، وليس تعميقها بالاغتراب والهجر.

ولهذا يطالب الأستاذ كولن بـ"تجديد الذات"، ويراه "الشرط الأول" للبقاء، فيقول: "تجديد الذات هو الشرط الأول لمن أراد البقاء؛ ومن عجز عن تجديد ذاته وقت الحاجة محكوم عليه بالزوال والفناء عاجلاً أم آجلاً مهما بلغ من القوة والجبروت. كل كائن في هذا الوجود يحافظ على حيويته، ويواصل مسيرته عبر تجديده لذاته. فإذا توقفت دورة التجديد أصيب بالتآكل والبِلى كجثة انتُزِعت منها روحها".

وهو في هذا "التجديد للذات" يدعو للإفادة من الآخرين، لكنه يحذِّر من الانخداع في النقل الذي يكون محاكاة وتقليدًا أعمى لا تلاقحًا ونقلاً مبصرًا، فيقول: "حذارِ من الخلط بين تجديد الذات، والهُيام بكل محدَث جديد أو الشغف بكل تقليعة مبهرة. فالتجديد الثاني ليس إلا محاولة لإخفاء التجاعيد بوضع طلاء على حشودٍ سَرَى في وجوهها التمزق والتآكل وامتد إلى جميع أطرافها، أما التجديد الأول فسعي حقيقي لإرواء المجتمع بماء حياة من معين الخضر، ومَنْحِه سمةَ الخلود".

ويضيف مبينًا مقصوده من "التجديد الحقيقي" قائلاً: "التجديد الحقيقي، ارتقاء إلى فضاءات من التفكر أكثر جِدَّة ووضوحًا عبر إنتاج تَواليفَ فريدة بين القيم التي توارثتها الأجيال وصقلتها قرنًا بعد قرن، وزبدةِ التجارب الفكرية والعرفانية الراهنة، مع الحفاظ على جوهر البذور وصفاء الجذور. أما وسم المرء بالجِدّة ووصمه بالقدم بناء على جاكت لامع أو فستان فاقع، أو معطف أنيق أو شعر مدهون، فسذاجة صارخة وانخداع مريع؛ والسعي إلى فرض هذا النوع من التفكير، ضرب من التحايل والتمويه والتهريج.

كما أن الأستاذ كولن يدعو للإفادة من تجربتنا

hiragate.com

الحضارية والاعتزاز بها، وإلى التخلص من الشعور بالنقص والدونية، قائلاً: "إننا في الحقبة القريبة من ماضينا، نسينا بالكامل أن لنا جذورًا روحية محكمة نرتبط بها، وأننا أقمنا حضارات زاهرة عديدة على مدار التاريخ، وبدونا لمن ينظر إلينا كأننا أمة لا ماضي لها. والأنكى من ذلك أن شعورًا بالنقص أصابنا، فأنكرنا ذاتنا وأنكرنا ماضينا دفعة واحدة، بل بات بعضنا يخجل من هويته الوطنية. ابتعدنا عن ذاتنا يومًا بعد يوم حتى صرنا أسرى لقيم أجنبية".

إذن، لا تعني الدعوة إلى الإفادة مما لدى الآخرين من حكمةٍ التنكرَ لماضينا، ولا ازدراء تجربتنا، ولا التنصل من قسماتنا الخاصة المميزة لنا كما يعتقد البعض خطأ.

بين استغراق الحاضر واستشراف المستقبل

إحدى الآفات القاتلة التي عرقلت العقل المسلم ومنعته من الخروج من الأزمات التي ألمت به، هي عدم قدرته على مدِّ البصر خارج حدوده الزمانية والمكانية، على نحوٍ يجعله غير مستغرَق في مشكلات حاضره المتشابكة، وإنما يكون قادرًا على فتح نوافذ جديدة، وعلى تجاوز واقعه الأليم والاستعداد الجيد لما هو آت.

والإسلام -بتعبير موجز واضح- هو دين المستقبل. يكفي أنه يربي المسلم على الاستعداد للآخرة بعمل الصالحات واجتناب المنهيات، ويدربه على كبح جماح نفسِه رجاءَ الثواب من الله تعالى في دار الخلود.. أليس في هذا تنشئة على التفكير بالمستقبل؟

وفي "الغرباء" حديث مستفيض عن المستقبل وضرورة إعداد العدة له، بمزيج من الأمل والعلم والتخطيط والعمل الدءوب، يقول الأستاذ كولن: "لكي نسير بخطوات واثقة إلى المستقبل المشرق الذي نؤمّل أن يكون لنا، ننبه فيما يلي إلى قضايا في غاية الأهمية والحيوية:

• ينبغي على الأمة جميعًا -وبالأخص على النخب والمثقفين منها- أن يؤسّسوا "سَلامًا" بينهم وبين تاريخهم.

• ينبغي أن يتم التخطيط لكل حركة تجديدية وعملية تغييرية وُضعت من أجل إنشاء المستقبل، بناءً على مقوماتنا التاريخية وجذورنا الروحية.

• ينبغي ألا تشوَّه قضية حيوية كهذه بالأغراض السياسية ولا أن تلوَّث بالمطامع الفردية أو المصالح الفئوية.

• يجب أن يوضع في الحسبان أن المساعي والجهود التي تصبّ في هذا الاتجاه، قد تعترضها بعض المضاعفات الجانبية المفاجئة، حتى وإن تم اتخاذ كل التدابير اللازمة. ومن ثَمَّ ينبغي السير بحكمة وبصيرة، كما ينبغي عدم إتاحة الفرصة لعواطف طفولية طائشة.

• قبل أن نهدم بنيانًا ما، ينبغي أن نكون قد حسمنا قرارنا حول ما سيُبنَى مكانه، فإذا كان ذلك واضحًا وضوحًا تامًّا، عندئذ يمكن الشروع في هدم البنيان القديم المتداعي. وإن مبدأنا في هذا الشأن هو :نَهدم لنبني".

• إن جميع القرارات وكافة الأفعال المتعلقة بأي مشروع في هذا الإطار، ينبغي أن تُزوَّد بالعلم والخبرة والمعرفة والتخطيط.. وكل مسعى وكل مبادرة ينبغي أن تدعم بالدراسات العميقة والبحوث الدقيقة والاستيعاب الشامل، حتى لا نقع في دائرة مفرغة من الهدم والبناء.

وفي هذا الصدد، يلفت الأستاذ كولن إلى سنّة مهمة من سنن الله في التدافع وفي مداولة الأيام والمواقع بين الناس؛ حتى لا يصاب أحد بهزيمةٍ جراءَ ضغطِ اللحظة الراهنة وقسوتها، فيقول: "إن سنّة الله اقتضت ألا تستمر وتيرة السقوط والتراجع إلى الأبد، وألا تسير عجلة الأحداث والوقائع في اتجاه واحد قط، وألا يمتد سلطان الليالي إلى أبد الآباد. فكم من مرة دار الزمان دورته، فتألقت خرائب الديار بلآلئ العمران من جديد، وعادت يد الأحداث -التي تسير في خط دائري- توزع أزهار البسمات على البؤساء الذين أبكتهم فيما مضى، وانهزمت ظلمات الليل أمام ضياء النهار مدحورة مقهورة، ودوّت جنباتُ الكون مهللة بضحكات النور الساطعة".

تلك كانت وقفات، أو رشحات من فيض هذا الكتاب المهم للأستاذ فتح الله كولن، ولستُ بحاجة للقول بأنها لا تغني عن مطالعة الكتاب والتأمل مليًّا في سطوره وفيما بين كلماته، وإنما هي -كما أرجو- دافع لمطالعته والتمتع بما حواه من أدب رفيع وفكر عميق وتجارب ناضجة نابضة. ■

(*) كاتب وباحث، وسكرتير تحرير مجلة التبيان / مصر.

hiragate.com

د. ناصر أحمد سنه*

البيوت الدمشقية

تواضع الظاهر وثراء الباطن

حرص المعماري الدمشقي على أن تكون البيوت راحة لأهليها وجنة لساكنيها، وسترًا من فضول الآخرين، وسكنًا من ضجيج العابرين.. فيها تتواصل الأجيال في واحة ود وعمل وعيش غنّاء صيفًا وشتاء. لذا تتميز بتوزيعها الداخلي، وتشكيل مساحات جميلة من الفراغ. تبدو متشابهة بسيطة متجردة، متواضعة من خارجها (مراعاةً لشعور الفقراء)، بينما تباينها الكبير وتمايزها الواضح وثراؤها الباهر، يظهر داخلها وكأنها تشي بوحدة الظاهر وثراء الباطن وبساطة المظهر وعمق الجوهر.

إنها شبه مغلقة فيما عدا شرفات متناثرة، ولا تبوح أبوابها -بأقواسها نصف الدائرية- بما تخفيه خلفها، كما تجبر عابريها (فرادى) على التواضع للمرور عبر باب صغير (الخوخة) مفتوح في جسد بابها الكبير (الزقاق). وحين تدق باب خوخة بمطرقته المعدنية (السقّاطة) يتولد إحساس بالألفة والحنو قبل الولوج. ثم مرور مفرد عبر دهليز ضيق معتم مرصوف بحجر، يُفضي فجأة إلى باحة سماوية كبيرة، وينقلب الشعور -بحبس الأنفاس- للمرور عبر ضيق الدهليز إلى سعة أرض الديار.

واحة غنّاء

تشرق الشمس في "أرض الديار" لتضيء ليس فقط ما بالداخل، بل ما حولها. وفيها بركة بنوافير مياه (وبخر المياه يُرطب المكان). ولا تخلو هذه الباحة من النباتات والخضرة، والأشجار المثمرة، وتوظيف ظلالها، حيث تنتشر أغراس الياسمين الدمشقي، والفل، والجوري، والقرنفل، واللبلاب المتسلق.. وتشخص أشجار الليمون، والنارنج الدمشقي، والتوت، والمشمش الهندي، ويوسف أفندي، وعرائش العنب الباسقة.. روضة عاطرة غنّاء تُغني عن الحدائق الخارجية. ويفيض البيت بالماء الوافر الجاري عبر أنابيب للماء العذب، وأخرى لغير الصالح.. بينما تزدان أرضيات وجدران أرض الديار بالأحجار -الأسود البازلتي، والوردي، وغيرهما- المزخرفة بزخارف نباتية وهندسية. ويعكس الرخام الملون رونقًا خاصًّا.

وفي هذا الفناء السماوي توضع أرائك ومقاعد مريحة، ومزخرفة.. كما يتناغم حفيف الأشجار وثمارها المدلاة، وعبق الياسمين، وألوان الأزاهير، مع صوت نوافير المياه ونسمات الهواء العليل، مما يبعث على الهدوء والاسترخاء، وراحة البال. وفي هذا الصحن كثيرًا ما يجتمع الأهل والأقارب والأصدقاء في السهرات الصيفية، والحفلات العائلية.

تناغم داخلي

كالأسوار تحيط بأرض الديار أجزاء البيت المكون غالبًا من طابقين؛ ففي صدارتها تظهر غرفة الضيوف (القاعة)، بينما على أطرافها أبواب غرف النوم واسمها "مربع"، إذ لكل فرد من العائلة مربعه الخاص. ويقع في جهتها الرابعة الإيوان (الليوان). تتألف القاعة من جناحين أو ثلاثة (طزر)، ويتألق خشبُ سقفها (الحلقة) وحيطانها بالزخرفة الرائعة. وقد تمتد تلك الزخارف لتكسو الأركان بالسراويل، وقد تحتوي القاعة على بحرة صغيرة تسمى "الفستئية".

وغرف الطابق الأرضي عادة، أعلى من مستوى فناء البيت، لتفادي تيارات الهواء البارد المتسربة من الأماكن المنخفضة، بينما يخصص الطابق العلوي للنوم، وتطل جميع الغرف على الفناء. أما الإيوان فغرفه دون جدار رابع، مرتفعة عن مستوى أرض الفناء بنحو ٤٠ سم، وله قنطرة "تاج الإيوان" مزينة بأطر من أحجار منها الأبلق (مزخرف هندسيًّا بالحفر عليه)، يعلو سقفه زخارف خشبية ملونة. كما يحتوي الإيوان على قاعتين أو ديوانين، على يمينه باب لغرفة السفرة (مربع الأكل)، وبها طاولة خشبية منخفضة، وكراسي (قش) منخفضة الارتفاع كذلك. ويوجد في الإيوان درج يُفضي للطابق الثاني. كما يحوي درجًا للقبو (بيت المونة) لتخزين المؤن الغذائية السنوية.

تبدو على جانبي الإيوان فتحات جدارية (كوى أو مشاكي)؛ محاريب صغيرة لوضع الشمعدانات وقناديل الكاز (المصباح النحاسي القديم). كما توجد في جدر الغرف والدواوين فجوات ذات رفوف لوضع الكتب (الكتبية)، وأخرى ذات درفتين من الخشب أو الزجاج مخصصة لوضع التحف الثمينة.

سحر السكن ودفء المكان

غالبًا ما تضم البيوت الدمشقية عائلات كبيرة ممتدة، حيث يتواصل العطاء الأسري، ويمتد النهج التربوي وتبادل الخبرات والمهارات بين كافة أفرادها. لذا إنه بيت مصمم لتيسير كافة الأعمال اليومية مع حق جميع أفرادها في صون خصوصياتهم.

يحلو للبعض تقسيم البيت لقسمين، أحدهما للضيوف الرجال (السلامْلِك)، والثاني للنساء (الحرَمْلِك)، وكلاهما يحتوي على فناء داخلي تحيط به غرف وقاعات. يضم السلاملك المدخل (لا يتيح النظر إلى الباحة الرئيسة)، وجزء آخر هو الباحة الرئيسة للبيت

hiragate.com

(أرض الديار)، ويشمل الحرملك أرض الديار والنافورة والأشجار، ويتصل مباشرة بالمطبخ.

ولغرف الدار دكات وعتبات؛ تفرش الدكات أولاً بالحصير ثم فوقه الطنافس والبُسط، وعلى أطرافها توضع المقاعد الطواطي ومساندها المغلفة بنسيج موشى دمشقي يسمى "الدامسكو". وهو نسيج مخملي أو صوفي أوقطني منقوش.

وفي الطابق العلوي منشر الغسيل (المشرفة)، وهو شبيه بالفسحة السماوية. وأعلى هذا الطابق غرفة واحدة تسمى "الطيارة". وفي الأسطح، يفصل ملكية البناء جدار خفيف (الطبلة) مصنوع على نموذج البغدادى؛ ومكسو باللبن الطابوق أو الكلس العربي. وفي المطبخ المدخنة، والموقد، وخزائن الحبوب، ويوجد أسفل الدرج أو الجدران الداكونة أو الخرستانة.

أما وسيلة تدفئة البيت القديم فهي الموقد الحديدي أو النحاسي الذي يملأ فحمًا، ويوقد خارج البيت ليتطاير منه الغاز ثم يُحمل إلى الغرفة ليملأها دفئًا.

مشاريع اقتصادية وثقافية وتراثية

بيوت عتيقة، إحدى "أساطير الشرق الساحر"، مقصد سياحي وثقافي وتاريخي مُقدر، سجلتها منظمة "اليونسكو" ضمن التراث الإنساني. في هذا يبرز بيت جبري، وبيت الخوالي، وبيت الوالي، وبيت نظام، ومكتب عنبر، وبيت خالد العظم، وبيت العقاد، وبيت السباعي، وبيت القوتلي، وبيت الطيبي، ومنزل سيدي حميد.. لذا تنامى ترميم وتحويل بعضها إلى مطاعم ومقاهي كبيت جبري، ومطعم الخوالي.. ليجد فيها مرتادوها مأكولات ومشروبات دمشقية وغربية. فمع المحافظة على أصالتها وتقسيمها المميز تم تحويل باحاتها وأواوينها إلى أماكن لجلوس الزبائن، ليتناولوا ما لذّ وطاب، مع صوت خرير المياه والنوافير، والنسيم المعطر برائحة الياسمين الدمشقي الشهير.

يعتبر "بيت جبري" من أشهرها (شُيد عام ١٧٣٧م)، ومكّون من طابقين و٢٣ غرفة مع البهو الرئيس، وتضيف بركة مائه ونافورتها والإيوان، لمسات سحرية. أما مطعم الخوالي فرمم عام ١٨٦٧م، وأعيد ترميمه ما

بين ٢٠٠٠ - ٢٠٠٣م، وسكنته عائلة "كبور" وحولته إلى مطعم. كما حول البعض بيوتهم -خاصة الطوابق العليا منها- لصالونات للندوات الثقافية والموسيقية، وصالات عرض للكتب المستعملة، ومعارض فنية وتشكيلية، بينما أصبحت بيوتًا أخرى، مكانًا مفضلاً لتصوير المسلسلات التلفزيونية.

أما "بيت الوالي" فأحد المنشآت (الفندقية) التي تجاوزت حدود البيت الدمشقي الواحد، لتجمع ثلاث بيوت مفتوحة على بعضها البعض، متشابهة ومتميزة في آن؛ فلكل فسحته السماوية، والبحرة الخاصة به، والغرف المحيطة به.

وهناك "بيت نظام" (بني عام ١٧٧٢م) متميز بقاعته الرئيسة، ويحتوي ثروة كبيرة من الزخارف والطرز المعمارية الفريدة. أما "مكتب عنبر" (أقيم للسكن عام ١٨٧٦م)، فقد تحول إلى دار للتعليم، ومقر لقصر الثقافة العربية، ويعد آبدة من أوابد دمشق، وأمجاده ما زالت حاضرة في كل زاوياه، فريد في عناصر

hiragate.com

بيت خالد العظم

عمارتـه، وزخرفتـه، وأعمدتـه الرشـيقة، ورسـوم جدرانه الفسيفسـائية. وهو منبر من منابر العلم والفكر، إذ درس فيه مجموعة من أعلام دمشق، مثل "شكري الشربجي"، و"عبد القادر مبارك"، و"محمد البزم"، وغيرهم.

وفـي سـوق سـاروجة يقـع "بيـت خالـد العظـم"، وتبلـغ مسـاحته ٣١٣٦ مترًا مربعًـا، مبني بالحجر واللبن والخشـب، وله مدخلان شـمالي وجنوبي، ويُعرف الآن بـمتحف "التوثيق التاريخي" لدمشق القديمة، كما يعرض في قاعاته الستة صورًا عن الحياة الاجتماعية التي عاشها سكانه وأهل دمشق عمومًا. وقد شُيد في الفترة العثمانية (خـلال القـرن الثامـن عشـر)، وتـم افتتاحـه متحفًـا عـام ١٩٨٠م، وقد أُلحقت به مديرية المباني التاريخية.

أمـا السـفارة الدنماركيـة فاختارت بيـت "العقاد" (في سـوق الصـوف الدمشـقي القديـم) كمعهـد ثقافـي لهـا، واسـتمرت فـي أعمـال ترميمـه لسـبع سـنين، ومـن ثـم اسـتثمرته لمدة خمسـين عامًا، وأثناء الترميم وجد أسفله بقايـا المسـرح الرومانـي الذي بنـاه هرقـل الأول حوالي ١٠٠ ق.م، إضافـة إلـى أن حائط الإيـوان فيه فريد ونادر كونه يعود لنهاية العصر المملوكي (حوالي ١٤٧٠م).

تعـج دمشـق بالمآثـر التاريخيـة التـي تحكيهـا أبوابها وقبابهـا ومآذنهـا وخاناتهـا وحماماتها وبيوتهـا المرصعة بالفسيفسـاء والموزاييـك. وعندمـا يجتمـع الزمـان والمـكان، ويتعانـق عبـق التاريـخ مـع عطـر الياسـمين الدمشـقي، فيرويـان قصتهـا كمدينـة عريقة فـي الحضارة والعمـران. فبيوتهـا القديمة الرائعـة ذات العمارة الفريدة المتفردة، معمار يعكس تحضرًا جميلاً، وعمارة مادية لا تجـدي بمعـزل من عمارة معنوية تغذي القيم والمشـاعر والفكر في آن واحد.

سيبقي البيت الدمشقي مأثرة من مآثر العمارة العربية الإسلامية الأصيلة.. متحف مفتوح على كثير من ملامح فنونهـا الخالـدة. فقـد بلـغ هـذا الفـن مبلغًـا فـي التعمير المكانـي، والإبداع الجمالـي، والتوزيـع الوظيفي. فضل تركـه الأجـداد دينًـا فـي رقاب الأحفـاد ليرفـدوه بكل ما يحقق اسـتمراريته، وتبقي البيوت الدمشقية العتيقة سحر وسر واجتماع ومودة وبهجة ومسرة. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

أ.د. بركات محمد مراد*

الإبداع حق إنساني

إن الإبداع فاعلية إنسانية، وخلق يتغيا تجاوز المعتاد وتخطي ما هو مألوف وسائد، بهدف إنتاج صور ورموز وأفكار مغايرة، واستشراف آفاق جديدة تبرهن على الملكة الخلاقة لدى الإنسان ككائن عملي يسعى دوما إلى تغيير واقعه، وصياغة علاقات أكثر ملاءمة لطموحاته في الحرية والعدالة والتقدم. ولعل هذه الرغبة العارمة في الإبداع التي تتملك الإنسان منذ بداياته، هي التي كانت الحافز القوي وراء صنع أشكال الحضارة والتقدم التي عرفتها كل المجتمعات الإنسانية. وهي التي تحفز على مختلف أشكال التعبير، لإنتاج ثقافة تعطي لعلاقات الناس فيما بينهم وبين واقعهم المادي والاجتماعي تلك الأبعاد السامية والمثالية التي تجعل الحياة قابلة لأن تعاش.

إن الإبداع رهين بمجموعة من الشروط الذاتية والمجتمعية التي توفر إمكانات الظهور والتحقق في

العملية الإبداعية، إذ يتجلى تركيب خلاق بين الذاتي والموضوعي، بين ما هو موجود وما هو ممكن، بين الحاضر والمستقبل.. والإبداع بالتالي جدل متوتر لا يتحقق إلا ضمن سياق صراعي بين قوى المحافظة والاجترار، أو قوى التجاوز والتقدم.

ولقد شهد النصف الأول من القرن العشرين، الاهتمام بالذكاء وتحليله وتعريفه ودراسته، أما النصف الثاني منه فقد تميز بالاهتمام بالإبداع والمبدعين، وكانت ذروة المخترعات القنبلة الذرية وما تلاها من أسلحة للدمار هائلة. ثم إن حلول السلام لم تكن سلامًا بالمعنى الصحيح للكلمة؛ زج بالعالم في حمأة الحرب الباردة التي تطلبت جهودًا في مجال الاختراع والإبداع. ومن هنا كان الطلب المتزايد، على الأدمغة المخترعة التي لم يتوفر منها قط ما تحتاجه الأمم المشتركة في هذه الحروب الباردة والساخنة.

ثم بدأ عصر الفضاء، وتصاعد السباق بين العملاقين الكبيرين أمريكا والاتحاد السوفيتي، وكانت الصواريخ وغزو الفضاء والأدمغة الإلكترونية وسواها، وكان من جراء ذلك الطلب المتزايد على الأدمغة المبدعة، وبالتالي الإلحاح على علماء النفس في الكشف عن هذه الأدمغة، وتحديد معنى الإبداع ومكوناته وطرائق تكوينه.. ومن ثم كانت مطالبة الأمم لمربيها ومدارسها بتهيئة أكبر عدد ممكن من المبدعين والمخترعين. ولقد كان من أهم الطرائق التي اتبعت في دراسة الإبداع وعوامله وعلاقته بالذكاء، طريقة التحليل العاملي Fac-torial Analysis على يد فريق من العلماء يرأسه العالم الشهير جلفورد، وذلك في جامعة كاليفورنيا الجنوبية.

لقد انطلقت هذه الدراسات من التنكر للنظرية السائدة عن الذكاء وعن قابلية واحدة موحدة، كما تنكرت للاعتقاد بأن المواهب المبدعة أمور خارجة عن نطاق الذكاء، وبدأت بافتراض أن ثمة عدة قابليات ممكنة التميز يشتمل عليها الإبداع، وافترضت كذلك أن المواهب الإبداعية ليست وقفًا على عدد قليل من الأفراد المحظوظين، وأنها ربما كانت موزعة على جميع الناس وبدرجات متفاوتة، ولذلك فإن من الممكن البحث عنها، ليس عند الموهوبين وحدهم، وإنما عند الناس جميعًا.

وفي بحوثه الباكرة عن الإبداع حاول جلفورد أن يعرّف الإبداع تعريفًا بسيطًا فقال: "إن الإبداع بمعناه الضيق يشير إلى القدرات التي تكون مميزة للأشخاص المبدعين، فالقدرات الإبداعية تحدد ما إذا كان الفرد يملك القدرة على إظهار السلوك الإبداعي إلى درجة ملحوظة، ويتجلى الإبداع من خلال السلوك، ويشمل السلوك الإبداعي الاختراع والتصميم والاستنباط والتأليف والتخطيط.. والأشخاص الذين يظهرون مثل هذه الأنواع من السلوك وبدرجة واضحة، هم الذين يوصفون بالمبدعين".

ويرى جلفورد أن أهم القدرات الأولية التي تساهم في الجهود الإبداعية:

١- الإحساس بالمشكلات: إن قسمًا كبيرًا من نجاح العالم يتوقف على قدرته طرحَ الأسئلة الصحيحة والمناسبة.

٢- الطلاقة (Fluency) في الموهبة الإبداعية: فالمبدع يكون صاحب حظ كبير في إيجاد أفكار ذات معنى، وتوجد ثلاثة عوامل متميزة للطلاقة، وهي الطلاقة الفكرية، والطلاقة الترابطية، والطلاقة التعبيرية.

٣-المرونة (Flexibility): إن مرونة نفس الفرد أو سهولة تغييره لتهيئة النفس.

٤- التجديد: يملك الإنسان المبدع أفكارًا جديدة متجددة.

الإبداع والعبقرية

فالمبدعون الذين قدموا إسهامات خالدة للثقافة الإنسانية، سواء أكانوا علماء أو فلاسفة أو كتابًا أو مؤلفين موسيقيين أو فنانين، هم من يقومون بصياغة الحضارة الإنسانية ويعملون على تقدمها ورقيها من أمثال أينشتاين، وجويس، وسترافنسكي، وابن النفيس،وابن الهيثم، والبيروني، والرازي، وابن سينا، وكبلر، وجاليليو، وبيكاسو، قد تركوا تأثيرًا دائمًا على أفكار عدد لا حصر له من الرجال والنساء وأحاسيسهم.

إن هؤلاء الأفراد البارزين من المبدعين يشتركون في

hiragate.com

امتلاكهم لخاصية العبقرية، وقد أدرك هذا منذ وقت مبكر "فرانسيس غالتن" في كتابه المعروف "العبقرية الوراثية" (Herediitary Genius) عام ١٨٦٩م، وهو الكتاب الذي حاول فيه غالتن أن يضع أساسًا وراثيًا للإنجاز المتميز.

وقد كانت الأمثلة التي طرحها حول العبقرية تتضمن قادة مثل "دوق ولنغتن Wellington، ووليم بت William Pitt، فضلاً عن مبدعين من أمثال عائلة باخ وعائلة شليجل، كما قامت "كاترين كوكس" بعد ذلك بأكثر من نصف قرن باقتفاء أثر غالتن، فأصدرت مجلدًا كان له تأثيره الواضح بعد ذلك بعنوان "الخصائص العقلية المبكرة لثلاثمائة من العباقرة" عام ١٩٣٦م، واشتملت على عينة من عباقرة التاريخ في دراستها مثل نابليون، وكروميل، وبوليفار، فضلاً عن فولتير، ونيوتن، وسرفانتس، وقد اعتقد كل من غالتين وكوكس أنه يمكن تجميع الأنماط الموجودة من المبدعين والقادة تحت اسم شامل وهو العبقرية.

وطريقة التعرف على العبقرية بالتمعن في تلك الإنجازات التي كان لها تأثير نادر الحدوث على الأجيال المعاصرة والتالية لها. ولابد في الغالب أن يكتسب الشخص الشهرة من خلال تقديم هذه العبقرية لإسهامات تبقى على مر الزمن في نواحي النشاطات الثقافية والسياسية، أي أن العبقرية تعرف بالإنجاز. فالمبدعون قادة ثقافيون، وقد كان لأفكار أينشتاين النظرية تأثيرها البالغ على زملائه من علماء الطبيعة، وعلى المجتمع العلمي بشكل عام، كذلك كان تأثير بيتهوفن على الموسيقى، ومايكل أنجلو على النحت، وشكسبير على الدراما تأثيرًا فذًا في زمانهم هم، وفى الأجيال التالية لهم.

ومن شبه المؤكد أنه ليس هناك علاقة إضطرادية بين النجاح الدراسي وظهور العبقرية أو الوصول إلى مراحل الإبداع العليا، ووفقا لما قاله واحد من أبرز أساتذة أينشتاين في معهد زيورخ للبوليتكنيك (معهد العلوم التطبيقية أو الفنية) وهو "هرمان ميتكوفسكي" فقد "كان أينشتاين خلال سنوات تلمذته كائنًا كسولاً، ولم يكن يهتم بالرياضيات أبدًا".

إن الإبداع فاعلية إنسانية، وخلق يتغيا تجاوز المعتاد وتخطي ما هو مألوف وسائد بهدف استشراف آفاق جديدة تبرهن على الملكة الخلاقة لدى الإنسان، وصياغة علاقات أكثر ملاءمة لطموحاته في الحرية والعدالة والتقدم.

وربما لم يكن أينشتاين ليتخرج فعلاً لو لم يصادق تلميذًا نابهًا في فصله هو "مارسيل جروسمان" الذي كان يكتب مذكرات دقيقة خاصة بالمحاضرات ويسمح لأينشتاين بحشو ذهنه بما يريد منها من أجل الامتحانات. لقد استخدم أينشتاين الساعات المنتزعة في وقت فراغه كي يدرس ويتعلم ويفكر حول القضايا الكبرى غير المحلولة في علم الفيزياء.

وقد كان ما لا يقل عن نصف الأشخاص المشهورين الذين قام "آل غورتسل" بدراستهم من القراء النهمين منذ وقوت مبكر، واستمر حبهم للقراءة خلال سنوات رشدهم. وقد أظهرت الدراسات حول المراهقين المبدعين أنهم يميلون إلى أن يقرأوا أكثر من خمسين كتابًا كل سنة، إن سعة الاطلاع ليست تسلية غير ضرورية، وإن الشهرة المتحققة لهؤلاء الأفراد في عينة "آل غورتسل" ترتبط بطريقة إيجابية مع كونهم من القراء النهمين.

هذه العلاقة لا تدعو إلى الدهشة، فالبحوث حول الشخصية المبدعة غالبًا ما تشير إلى أهمية الاهتمامات العريضة، وسعة الأفق، وإلى الحاجة إلى الجدة، والتنوع والتركيب. فالابتكار يعتمد على القدرة على رؤية العلاقات بين الأفكار والأساليب التي لم يتنبه أحد إلى وجودها من قبل، ثم القيام بصهر هذه الأفكار والأساليب في مركب جديد.

فقد قام أينشتاين بدمج التطورات الأخيرة في الرياضيات، مع ميكانيكا جاليليو، وعلم الفلك لدى كبلر، في بنية واحدة متسعة النطاق. كذلك كان على أينشتاين من أجل التوصل إلى البنية التي سماها النظرية النسبية الخاصة، أن يغوص في موضوعين كان يظن

hiragate.com

أنهما غير مرتبطين، نظرية ماكسويل حول المغناطيسية الكهربية، ونظرية نيوتن حول الميكانيكا. لقد كانت محاولة أينشتاين للمزج بين ما اعتبره علماء الفيزياء الآخرون في زمنه فرعين منفصلين تماما شيئًا يتفق ونمط الإبداع.

الإبداع أو التهميش

ونحن بدورنا نجد أن الإبداع الآن صار عملاً مؤسساتيًا، بعد أن تأسست كثير من المراكز العلمية والبحثية في جميع أنحاء العالم، خاصة في الدول المتقدمة، وتسود الآن الخطط الاستراتيجية والمستقبلية لإنجاز الأبحاث العلمية التي تمول من قبل المجتمعات المتقدمة في ظل مشاريع بحثية بالغة الخطورة، مثل تلك التي تم إنجازها فيما يخص المكونات الوراثية للخلية أو فك شفرة الجينات البشرية، والتى استغرقت أكثر من خمسة عشر عامًا، بفضل تضافر الجهود العلمية من آلاف العلماء في مختلف أنحاء العالم، وسوف يساعد هذا المشروع في معرفة وعلاج عشرات من الأمراض المستعصية في المستقبل القريب. وهذا قد أحدث ثورة علمية بيولوجية في مجال الهندسة الوراثية وعلوم البيولوجيا والطب. وما كان لهذا أن يتحقق لو ترك لاجتهاد بعض الأفراد، ونعتقد أن البشرية بفضل هذه الجهود الجماعية، سوف تصل إلى علاج العديد من الأمراض الخطيرة والمستعصية في السنوات الأخيرة مثل كثير من أنواع السرطان وكذلك مرض الإيدز.

ومن هذا يتضح أن الإبداع مشروط أيضًا بالبيئة الاجتماعية بما تهيأ من فرص ومن ظروف مناسبة وتشجيع. فالمجتمع يكون مصدرًا للإبداع وتتفتح القدرات الإبداعية بما يملكه من ثراء مادي ومعنوي، وبما ييسره أمام أفراده من التسهيلات ومن تقبل للجديد ورعايته. وقد يكون الأمر مخالفًا لذلك حيث يبدو المجتمع مثبطًا للهمم، ساخرًا من الجديد، مضيقًا على المبتكرين والمجددين، وائدًا لكل فكرة وسلوك لا يتفقان مع ما استقرت لديه من الأفكار والعادات والتقاليد.

فإن من المطلوب الانتباه إلى أمرين مهمين .

الأمر الأول هو أن ممارسة الإبداع -باعتباره حاجة وضرورة- قد ارتقت إلى الدرجة التي صار معها الإبداع يقترب في أهميته من أن يكون "حقًا إنسانيًا" أي حق من حقوق الإنسان، تماما مثل الحق في الطعام والشراب والمسكن والعلاج وإبداء الرأي ..، وأما الأمر الثاني فهو أن دورة حياة الإنسان في معظم البلدان النامية تنتهي دون ممارسة الإبداع.

المسألة إذن أن إنسان هذه المنطقة من العالم (الإنسان العربي) يعد في مأزق بالنسبة للتعامل مع الإبداع، فبينما الإبداع آلية حياة في العالم الغربي الآن، نجد الإنسان العربي -بوجه عام- يمر بمرحلة حياته إلى نهايتها دون الاقتراب الصحيح من هذه الآلية، أي دون ممارستها ودون أن يفعِّل حياته بها، ودون أن يتفاعل مع الحياة المحيطة به (في الشارع ـ في العمل ـ في المجتمع) من خلالها. وإذا كان الإبداع هو عمل يساهم من خلاله الإنسان في إحداث شيء (أو تغيير) مفيد لم يكن موجودًا من قبل (سواء هو منتج أو خدمة أو رأي أو أداء أو استشراف...إلخ)، فإن معنى انتهاء دورة حياة الإنسان دون ممارسة الإبداع، هو أن الإنسان تنتهي حياته دون أن تنطلق الشحنات والإمكانيات التغييرية التجديدية الرابضة داخله، أو دون أن تكتمل إنسانيته، والنتيجة الطبيعية لتخلف الإنسان عن ممارسة "حق" و"اجب" الإبداع هي تخلف بيئته سواء كانت هذه البيئة على مستوى دقيق (مثل الأسرة)، أو على مستوى متوسط (مثل المؤسسة) أو على مستوى كبير (مثل المجتمع أو الدولة).

ولذلك من الأهمية بمكان أن يكون الإبداع الوطني العام متصلاً بالأحوال والظروف والإمكانات الخارجية، في نفس الوقت الذي هو فيه امتداد طبيعي خلاق لإبداعات "الفرد الفعال"، المنخرط في فرق عمل تتشابك في "إطار مؤسسي" وفي علاقات "غير مؤسسية"، إنه اقتصاد المعرفة القائم على الاستخدامات المثلى للمعلوماتية (Informatics) والتشبيكية (Networking) أو ما يسمى بالرقمية (Digitalisation) أو القائم على مفاهيم الاقتصاد الرقمي. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

hiragate.com

ألب أرسلان زورا*

المعادلة الصعبة بين الحرية والمسؤولية

يعد الفيلسوف "جون ستيورات ميل" واحدًا من الفلاسفة الذين حاولوا تحديد متى يحق للدولة التدخل في حياة الأفراد الشخصية، وخلال القرن التاسع عشر كانت السلطات الأوروبية تحفز المفكرين على تحديد حقوق المواطنين وسلطات الدولة، وهذا ما دعا الفيلسوف "ميل" إلى تحديد متى يكون تدخل السلطات في حياة الأفراد الشخصية مشروعًا، ومتى لا يكون تدخلها مشروعًا في كتابه المعنون بـ"الحرية"، والأفكار التي طرحها في كتابه كانت ضمن الأفكار التي ساعدت

في صياغة القوانين الحديثة في عديد من الأمم. وإذا أردنا البدء بالحديث عن أفكاره عن الحرية والحكومة، فلا بد -في هذا الصدد- من التركيز على جانب الإيذاء النفسي، وعدم عصمة البشر، والمسؤولية الاجتماعية.

لقد حدد الفيلسوف "ميل" آليتين لمشروعية تدخل السلطات في الحياة الفردية للشخص، الآلية الأولى مبدأ الإيذاء، والآلية الثانية مبدأ النفعية.

١- مبدأ الإيذاء

ويعني أن للدولة الحق المشروع بالتدخل في حياة الفرد الشخصية إن كانت أفعاله تؤذي الآخرين وتضر بهم، وكان هذا الضرر رغمًا عن إرادة الآخرين. وهكذا، نلاحظ أن الدولة لا يمكنها التدخل إذا قام الشخص بإيذاء نفسه أو إيذاء الآخرين بموافقتهم، ونجد أن هذا المبدأ يمثل حدًّا مانعًا مطلقًا لتدخل السلطات في أفعال الأفراد الخاصة غير المضرة بالآخرين.

٢- مبدأ النفعية

وهو يعني أن تدخل الحكومة في حياة الأفراد الشخصية يكون مشروعًا إذا كان الفعل الشخصي يؤدي إلى نتائج ضارة، وهنا يتوجب على الحكومة أن تقوم بإجراء تحليل عن مدى منافع الفعل وأضراره، وفي حالة ما كان التدخل الحكومي سيؤدي إلى ضرر أكبر من ضرر الفعل الشخصي للفرد، حينها يجب على الحكومة الامتناع عن التدخل.

وهكذا يتبين لنا الفرق بين الآليتين؛ ففي مبدأ الإيذاء نجد أنه مبدأ عام، بينما الآلية الثانية -وهي مبدأ النفعية- يحتاج إلى تقييم كل حالة على حدة وبصورة فردية، لمعرفة مدى مشروعية التدخل الحكومي من عدمه.

وإذا أردنا تفعيل مبدأ الإيذاء، فمن الأهمية بمكان عدم التوقف عند المبدأ والتقدم خطوة أخرى لتعريف الأفعال التي تشكل إيذاء.. وكلما اتسعت حدود التعريف زادت حالات تدخل الحكومة في الأفعال الشخصية للأفراد.. وبوجه عام فالإيذاء البدني وتدمير الممتلكات، من أنواع الإيذاء المتفق عليها اجتماعيًا والمقبولة لدى "ميل" أيضًا، ولكن تظل لدينا مسائل عالقة حتى نفهم مبدأ الإيذاء كما يجب.. فهل يدخل الإيذاء النفسي في نطاق مبدأ الإيذاء أم لا؟ هل يعد الامتناع عن الفعل إيذاء؟ وهل هاتان الحالتان تستدعيان التدخل الحكومي أم لا؟

الإيذاء النفسي

هل الشعور بالتوتر، أو الضيق، أو أن يعيش الشخص إيذاء نفسيًّا خلال أفعال يقوم بها فرد آخر، يدخل ضمن مبدأ الإيذاء أم لا؟ إذا قبلنا أن التوتر أو الضيق من فعل الآخرين إيذاء، فسنكون قد وسعنا مفهوم الإيذاء، وبالتالي وسعنا نطاق تدخل الدولة في حياة الأفراد وأفعالهم الشخصية. ولكن الفيلسوف "ميل" لا يعتبر الضرر النفسي أو الضيق من فعل شخص، داخلاً في نطاق مبدأ الإيذاء، حيث يرجع هذا، إلى اختلاف القيم والمبادئ لمختلف الأفراد داخل المجتمع؛ ومثالاً على ذلك، إذا كان هناك شخص لا يحب اللون الأزرق لسبب ما، وشخص آخر يرتدي اللون الأزرق، فشعور الكاره للون الأزرق والغضب والضيق الذي يتملكه، يعدّ ضررًا نفسيًّا لا يقبل "ميل" أن يكون داخلاً في نطاق مبدأ الإيذاء.

ومثال آخر مشابه لهذا، هو الضيق والتوتر الذي يشعر به شخص ينتمي للفكر الديمقراطي تجاه أقوال شخص مؤمن بالفكر الجمهوري، فالضرر النفسي هنا ينبغي ألا يدخل ضمن مبدأ الإيذاء، لأن الحكومة حينها ستضطر إلى التدخل في حياة الأفراد المخالفين لأفكارِ وأيدلوجيات الأطراف القوية داخل الدولة.

و"ميل" في كتابه يقول: "إذا كنا لا نريد تبنّي منطق الاضطهاد بأن نعطي الحق لأنفسنا في اضطهاد الآخرين لأننا على صواب والآخرون على خطأ، يجب علينا أن نحترس من إقرار مبدأ يؤدي لأضرار فادحة".. وما يفعله هنا، هو وقف استخدام مبدأ الإيذاء حتى لا يتم استخدامه في فرض اعتقاد أو مبادئ شخصية على الآخرين.. ويقرر أن فرض الأفكار والمعتقدات على الآخرين أمر خاطئ، لأن الفرد منا، لا يحب أن يجبر على اعتقاد لا يريده. بالإضافة إلى أن "ميل" يعتقد بعدم عصمة البشر فيما يتعلق بما يعتقدونه أو يفضلونه. وإذا تحدثنا عن موقف شخص وقناعاته في مناقشة ما، فهناك دائمًا احتمالية الخطأ. والاعتراف بعدم العصمة ليس متعلقًا بالتواضع فحسب، ولكنه تقرير حقيقي وواقعي

hiragate.com

لفهم محدودية الطبيعة البشرية.

والحقيقة أن فكرة عدم عصمة الإنسان ومحدودية معرفته، مسألة يتفق عليها عديد من الفلاسفة والمفكرين مع "ميل"، ومن هؤلاء "سقراط" و"سعيد النورسي"؛ ففي كتاب "الجمهورية" يقتبس "أفلاطون" من أقوال سقراط: "بالنسبة لي فكل ما أعلمه أنني لا أعلم شيئًا"، ونفس الأمر يعتقده سعيد النورسي ويقرره في كتاب "رسائل النور"؛ حيث يقرر عدم عصمة البشر ويُرجع المعرفة الحقيقية لله وحده، ويظهر هذا واضحًا في استخدامه للنص القرآني في بداية ونهاية جميع فصول كتاب "الكلمات".. وهكذا يبدأ "النورسي" عمله بالاعتماد على ما يعتبره المصدر الحقيقي للمعرفة وينتهي بنفس المصدر المعصوم.

ونجد أيضًا الفيلسوف الإنجليزي "توماس هوبيس" يتضامن مع موقف "ميل" ويناقش المسألة في كتابه "Leviathan" (السفينة الضخمة)، حيث يقول: "لا تفعل بالآخرين ما لا ترضى أن يفعله الآخرون بك"، هذه القاعدة يمكن اعتبارها قاعد ذهبية، فهي تقصر التفاعل الاجتماعي بين الأفراد على ما يقبلونه لأنفسهم ويتفاعلون مع الآخرين وفقا لذلك. وبالتطابق مع هذه القاعدة الذهبية يقرر "ميل" أن فرض وجهة نظر شخصية على الآخرين أمر خاطئ وغير مقبول، وأن شعور الآخرين بالغضب أو التوتر النفسي لعدم موافقة الآخرين لوجهة نظرهم، لا يعدّ إيذاء معتبرًا يخول للسلطة حق التدخل في أفعال الأفراد الشخصية.

الامتناع عن الفعل

يرى "ميل" أن الامتناع عن الفعل يعد نوعًا من الإيذاء حالةَ ما كان الامتناع عن الفعل يؤدي إلى إيذاء سلبي، وفي هذه الحالة يكون تدخل السلطة مشروعًا. فالحكومة من حقها أن تحاكم رجل إطفاء أدى إهماله -أو امتناعه عن العمل- إلى احتراق مبنى ما. ولكن وعلى الرغم من ذلك، فإن إقرار الامتناع عن الفعل وإدراجه تحت مبدأ الإيذاء، يمثل خطرًا على الأفراد. فالإنسان لا يستطيع إلا القيام بأفعال محدودة داخل الزمن الواحد، ولكن ذلك، أدى إلى توسع سلطات الدولة القضائية في أحقية تدخلها في حياة الأفراد الفردية. وهذا ما يستدعينا أن نتساءل،

خلال القرن التاسع عشر كانت السلطات الأوروبية تحفز المفكرين على تحديد حقوق المواطنين وسلطات الدولة، وهذا ما دعا الفلاسفة إلى تحديد؛ متى يكون تدخل السلطات في حياة الأفراد الشخصية مشروعًا ومتى لا يكون.

كيف يقوم "ميل" الذي كما يظهر من أعماله أنه يريد تقليص تدخل الدولة في حياة الأفراد الشخصية، بتضمين "الامتناع عن العمل" كسبب يدعو الدولة للتدخل في حياة الفرد؟ والحقيقة أننا نجد الإجابة التي نبحث عنها في أفكار سقراط التي طرحها أفلاطون في كتابه "الجمهورية"، فتعريفه للمجتمع العادل هو أن يقوم كل فرد من أفراد هذا المجتمع بوظيفته الاجتماعية، ومن هنا يمكننا اعتبار التحرك الصحيح يكون وفقًا لما أقره المجتمع كفعل لازم، أو كوظيفة اجتماعية يقوم بها الشخص طبقًا لما يمليه الضمير عليه ووظيفته الاجتماعية.. وهكذا يكون "الامتناع عن الفعل" فعلاً ظالمًا، الأمر الذي يخول الدولة التدخل لاستعادة العدالة الاجتماعية.

ولكن من ناحية أخرى، إن كان "الامتناع عن الفعل" ليس داخلاً في نطاق مسؤولية الشخص الاجتماعية، فحينها لن يعد "الامتناع عن الفعل" جريمة تدعو لتدخل الدولة؛ فمثلاً امتناع عامل الإطفاء عن وقف الحريق يعد عملاً ظالمًا يدعو الدولة للتدخل، لأن عامل الحريق امتنع عن أداء وظيفته الاجتماعية المسؤول عن أدائها، أما إن صدر هذا الفعل من شخص عادي لا يعمل في الإطفاء، فإن "امتناعه عن الفعل" لن يعد فعلاً مناقضًا للعدالة، لأنه لا يدخل في نطاق مسؤولياته الاجتماعية.. ولكن "ميل" يتجاوز وصف الفعل بأنه عادل أو ظالم كما فعل سقراط، وينظر للفعل من منظور المسؤولية القانونية للفرد.

فرجل الشرطة مسؤول عن إيقاف الجريمة، والوالدان مسؤولان عن رعاية أطفالهم.. وهكذا، تقرر كل أمة مسؤوليات الفرد القانونية وفقًا لما تقره من قوانين، وعلى سبيل المثال، فالدول الأوروبية -كفرنسا وألمانيا- توجب على المواطنين مساعدة الأشخاص

hiragate.com

الذين يواجهون خطرًا، ولكن هذه الوظيفة الاجتماعية في إنقاذ من يواجهون خطرًا أو في حاجة للمساعدة، لا تعد وظيفة اجتماعية في الولايات المتحدة الأمريكية بكل تأكيد، فغالبية الأفراد داخل الولايات المتحدة أول شيء يقومون به هو الاتصال بالسلطات المعنية بالمساعدة، ويحاولون تقديم المساعدة الأولية، لكن هذه المساعدة التي يقومون بها، ليست واجبة عليهم طبقًا للقانون. كل دولة، تقوم بتحديد المسؤوليات الاجتماعية التي تطلبها من مواطنيها، فبعضها تتوسع في مفهوم المسؤولية والبعض الآخر يقللها.

وبالنسبة للأشخاص، فالمسؤولية غير الرسمية غالبًا ما تكون أوسع وأوثق من المسؤولية الرسمية، ويعتمد هذا، على الدين والثقافة والمبادئ التي يتبناها الفرد، وإن كان الامتناع عن الفعل قد لا يتطلب تدخل الدولة، إلا أن المسؤولية غير الرسمية أو الأخلاقية، تلعب دورًا هامًّا داخل المجتمع. فعلى سبيل المثال، هناك مسؤولية أخلاقية على الأبناء برعاية آبائهم لا سيما كبار السن، ولكن إن لم يقم الأبناء بهذه المسؤولية الأخلاقية لا يحق للدولة التدخل، وفي النهاية فالحكومة لا تملك الحلول المطلقة لكل المشاكل الاجتماعية، كما أن المسؤوليات الأخلاقية تختلف من دولة لأخرى ومن دين لأخر ومن ثقافة لأخرى.

لذلك فالحل البديل والفعّال، هو تعليم القيم والآداب الاجتماعية، ووفقًا للمبادئ التي وضعها "ميل" لعمل الحكومة، فعلى الحكومة يقع دور عقد المؤتمرات والفاعليات لمناقشة المشاكل الاجتماعية والإيذاء النفسي والمسؤولية الاجتماعية.. فالحكومة يمكنها أن تحل مشاكل اجتماعية معينة، لكن لا يمكنها حل جميع المشاكل الاجتماعية، ولذلك اقترح "ميل" على الحكومات -في وقته- أن تكون مسؤولية الحكومة الرئيسية؛ إحلال التعايش السلمي داخل المجتمع بين الأيدلوجيات المختلفة التي يتبناها الأفراد، أما ما يتعلق بمشاكل المسؤولية الأخلاقية، فعلى المجتمع أن يهتم بإيجاد الحلول المناسبة لها. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن الإنجليزية: صالح القاضي.

أخوة كونية

هكذا تضافرت الألوان يومًا واستمسكتْ،
والتفّت حول محور الحب المساعي،
ورددتْ الشفاه لحن أخوة الإنسان،
وهفت القلوب إلى عناق عالمي.

***

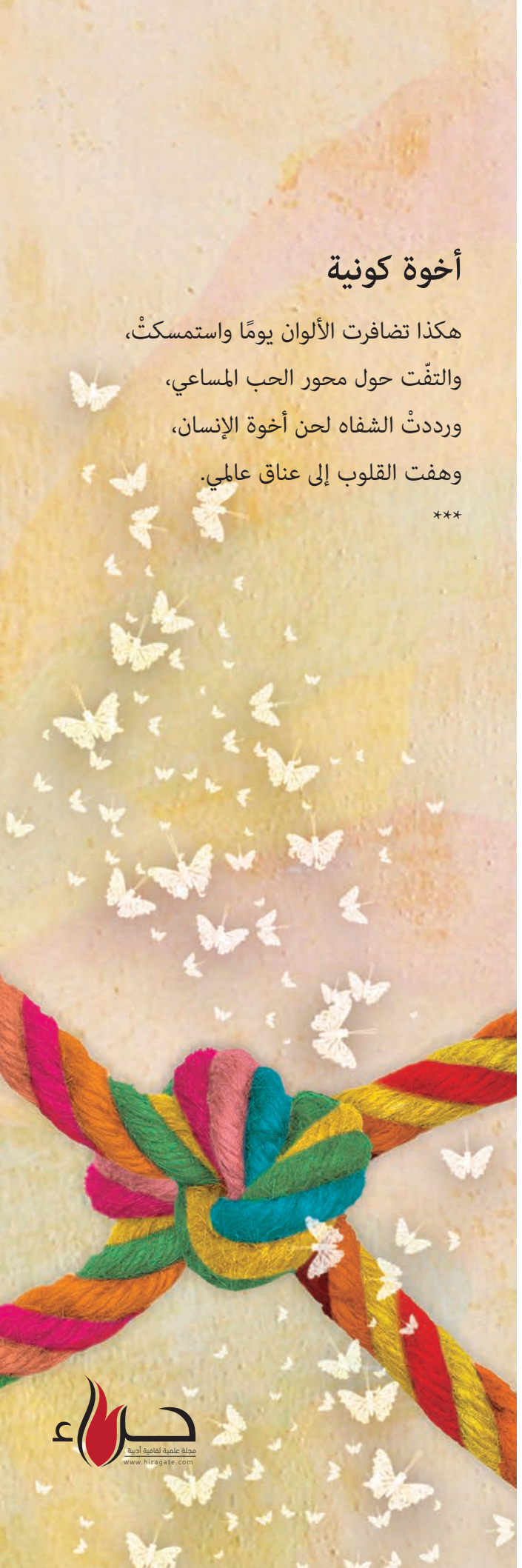

يوسف الشاطر*

اِرْبطْ كل شؤونك بمرضاة الله، اِضْبط بوصلة قلبك في اتجاه رضاه؛ تستقم أمورك وتنج من مخاطر النقم المبطَّنَة في النعم.

الموازين

حوار حول عمل المرأة

يقول لك وقد برقت عيناه، وانتفخ صدره، ومال برقبته، وغلظ صوته، وشعر من نفسه بشيء من الرجولة والنخوة والشهامة:

– أنا لا أتزوج امرأة عاملة.

فتقول له:

– إن الرسول ﷺ تزوج امرأة عاملة.

تضيف:

– ليست عاملة فحسب، بل أكبر تاجرة عرفتها مكة؛ خديجة ﵂.

يترنح يمينًا وشمالاً وتدور عيناه في رأسه باحثًا عن مخرج مناسب يتلاءم ومكانة النبي ﷺ. تقول له:

– ليس ذلك وحسب، بل كان يعمل عندها في مالها.

تزيد حيرته واندهاشه وكأنه يسمع ذلك لأول مرة في حياته، وما من مسلم إلا ودرس ذلك في السيرة النبوية أو سمعه أو قرأه. ثم يكاد يجن جنونه عندما تقول له إن تلك المرأة العاملة كانت أحب النساء إلى قلبه حتى قال فيها: "رزقت حبها"، وحتى قال لها: "حبي لك كعقدة في حبل".

العمل الصالح لا يقتصر على العبادات فقط، بل يشمل كافة مناحي الحياة اليومية للإنسان، بل هو أشد ارتباطًا بالحياة اليومية منه بالعبادات؛ لأن الذي يأتي العبادات فهو لا يأتي إلا عملاً صالحًا محضًا، أما الحياة اليومية فهي التي يختلط فيها العمل الصالح بغيره.

وكان يذكر فضلها عند نسائه حتى يَغرن منها، وظل وفيًّا لها ولم يتزوج عليها حتى توفِّيتْ، وهي التي أنجبت له كل أولاده عدا إبراهيم.

هل أنت أفضل من النبي ﷺ، أو أكثر رجولة منه، أو أشد غيرة؟

ثم لا يجد ما يجيب به إلا أن يقول لك إن ذلك من خصوصيات النبي ﷺ، ونحن لا يمكن أن نصل إلى مرتبته ومكانته.

يحوّل الحديث ويقول:

- إن الأصل أن تجلس المرأة في بيتها.

وكأنه قد ساق أصلاً من أصول العقيدة أو الشريعة تضافرت الأدلة وتواترت على ثبوته وقطعيته. وعندما تسأله عن الدليل يفتح فاه بآية تأبى إلا الخروج لدعم معنى لم ترد أصلاً له ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، فتقول له:

- إن الرسول ﷺ جعل "رفيدة" ﷺ على خيمة في مسجده، لمعالجة الجرحى ولم يقل لها "وقرن في بيوتكن"، فيدخلك في دوامة من الافتراضات: ربما فعل ذلك قبل أن تنزل الآية، ربما لم يجد طبيبًا ذكرًا.

ثم يحوّل الحديث مرة أخرى إلى ما هو اجتماعي فيقول تلك المقولة التقليدية التي أكل عليها الدهر وشرب:

- إن خروج المرأة للعمل وإهمالها لأبنائها وأسرتها هو سبب فساد المجتمع وانحراف الشباب.

فيربط كل آفات المجتمع ومشاكله بخروج المرأة للعمل. تقول له:

- لو نظرت إلى محيطك وواقعك، ستجد أن كثيرًا من المجرمين والمنحرفين والمنحلين ينحدرون من أُسرٍ نساؤها ربات بيوت، وستجد أن كثيرًا من المتفوقين والمتميزين والمصلحين ينحدرون من أُسرٍ نساؤها عاملات.

يقر بالأمر ويقول:

- ولكننا نبحث عن ربات البيوت بصفات معينة.

تقول:

- أنت الآن لا تقارن بين ربة بيت وعاملة، بل تقارن بين صفات يجب أن تتوفر في المرأة، وهذه الصفات قد توجد في ربة البيت وقد توجد في المرأة العاملة.

وتستطرد:

- لو رزقك الله ابنة، وكانت مجدّة في دراستها، متفوقة على قريناتها، لا شك سوف تدعمها وتشجعها وتحفزها على مواصلة دراستها، وقد تتخرج هذه الفتاة طبيبة أو مهندسة سوف تكون مسرورًا وفخورًا بابنتك.. وإذا تقدم لخطبتها رجل كفؤ ومتدين وهو كذلك من الذين يقولون "أنا لا أتزوج امرأة عاملة"، واشترط عليك أن توقف ابنتك دراستها أو تتخلى عن وظيفتها أو مهنتها، هل ستقبل الأمر وتوافق على الشرط؟

يصمت.. وتجيب أنت بدلاً عنه: "لن تقبل ولن توافق أبدًا، بل ربما طردته".

هل أنت متأكد، لقد تزوجت ربة بيت، ألا ترضى أن تكون ابنتك ربة بيت، تزوج ابنتك وهي عاملة وترفض أن تتزوج بعاملة، توافق على عمل ابنتك وترفض عمل المرأة؟!

يقول ربنا تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل:٩٧).

والعمل الصالح لا يقتصر على العبادات فقط، بل يشمل كافة مناحي الحياة اليومية للإنسان، بل هو أشد ارتباطًا بالحياة اليومية منه بالعبادات؛ لأن الذي يأتي العبادات فهو لا يأتي إلا عملاً صالحًا محضًا، أما الحياة اليومية فهي التي يختلط فيها العمل الصالح بغيره. وقد ذكر سبحانه الذكر والأنثى تأكيدًا منه على أن ذلك من شأنهما معًا. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

hiragate.com

أ.د. محي الدين عفيفي*

التعايش السلمي

في ظل التعددية الدينية

١ التعايش السلمي ضرورة حياتية لا يستغني عنها الناس في أي زمان ومكان، فقد شاء الله أن تكون التعددية من السنن الثابتة، وقد أراد الله تعالى أن تتعدد الأديان وأن يتعايش الناس في سلام. وهذا الأمر ينبغي استيعابه حتى ينعم الإنسان بالأمن والاستقرار، بعيدًا عن ثقافة الكراهية والتعصب والتطرف التي تحمل بعض الفئات على التزوير باسم الدين، فيلجأ المتطرفون والتكفيريون إلى القتل والتفجير والحرق، من خلال الاستدلال بالنصوص الشرعية زورًا وبهتانًا مما أدى إلى تشويه صورة الإسلام، وأعطى الفرصة للقول بأن هناك آيات في القرآن، وأحاديث في السنة تأمر بقتل الناس، نتيجة الأعمال الإجرامية والوحشية التي تقوم بها تلك الفئات الضالة.

لقد تميز الإسلام برفضه فلسفة "الصراع"؛ لأنه يؤدي إلى أن يصرع القوي الضعيف، فيزيله وينهي التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف الذي هو سنة من

سنن الله في سائر المخلوقات. رفض الإسلام فلسفة "الصراع"، وأحل محلها فلسفة "التدافع" الذي هو حراك يعدل المواقف، ويعيد التوازن والعدل مع بقاء التعددية والتعايش والحوار والتفاعل بين مختلف الفرقاء: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(فصلت:٣٣-٣٥).

إن الإسلام لا يريد "الصراع" الذي ينهي "الآخر". كذلك يرفض الإسلام الفلسفات التي اعتبرت القتل والقتال وإزهاق الأرواح جبلة جُبل عليها الإنسان، وغريزة من غرائزه المتأصلة فيه.

وفي قواعد أخلاقيات دستور الفروسية الإسلامية يقول الخليفة عمر بن عبد العزيز ﷺ وهو على رأس السلطة التنفيذية (الخلافة): إنه بلغنا أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سرية يوصيهم بوصايا مهمة منها: "لا تغلوا (أي لا تخونوا)، ولا تغدروا، ولا تمثلوا (أي لا تمثلوا بجثث القتلى)، ولا تقتلوا وليدًا" (رواه مسلم).

ورد في موطأ الإمام مالك أن أبا بكر الصديق ﷺ صاغ قواعد هذا الدستور الأخلاقي للقتال والحرب في وثيقة إسلامية، عندما أوصى قائد جيشه يزيد بن أبي سفيان -وهو يودعه- أمينًا على الجيش الذاهب لرد عدوان البيزنطيين في الشام، فقال في وثيقة الوصايا العشر: إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله (الرهبان)، فدعهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له.. وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبيًا، ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعن شجرًا مثمرًا، ولا تخربن عامرًا، ولا تعقرن شاةً، ولا بعيرًا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً ولا تفرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن. فكانت هذه (وثيقة الوصايا العشر) دستور الآداب الإسلامية وأخلاقيات القتال، عندما يفرض على المسلمين القتال.

فمعيار الإسلام ودولته، في السلم والسلام أو الحرب و القتال، ليس "الإيمان" و"الكفر"، ولا "الاتفاق" و"الاختلاف"، وإنما هو التعايش السلمي بين الآخرين وبين المسلمين، أو عدوان الآخرين على المؤمنين بالفتنة في الدين أو الإخراج من الديار.

إن أصحاب رسول الله ﷺ فهموا هذا الدين، وأدركوا اهتمامه واحترامه لإنسانية الإنسان، فلم يُنقل إلينا أن أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ قام بتفجير كنيسة أو أوصى أو حرض على قتل غير المسلمين سواء كانوا من أهل الكتاب أو من غيرهم. إن من أهم ما يتميز به الإسلام والنصرانية واليهودية كأديان سماوية، هو احترام إنسانية الإنسان؛ لأن الله تعالى هو الذي خلقه وأرسل الرسل لهدايته، وبيان دوره في إعمار الكون ودعم السلام والاستقرار والرحمة والمحبة.

ولقد طبق المسلمون هذا المعيار في العلاقات مع المخالفين فكان اليهود -بدولة المدينة المنورة- جزءًا من الرعية والأمة، ونص دستور هذه الدولة الإسلامية على أن "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وأن بطانة يهود ومواليهم كأنفسهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض لأهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه.. فاليهود أمة مع المؤمنين"[1].

وبالنسبة لعموم النصارى، قررت المواثيق النبوية في هذه الدولة الإسلامية الأولى "أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم"[2].

لقد قرر الإسلام الحرية الدينية التي تحترم إنسانية الإنسان وعقله الذي ميزه الله به، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦). تلك هي كلمة القرآن الملزمة؛ فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات نشر الدين الإسلامي، وإنما بسط سلطان الله في أرضه، فكان للنصراني أن يظل نصرانيًا ولليهودي أن يظل يهوديًا، كما كانوا من قبل، ولم يمنعهم أحد أن يؤدوا شعائر دينهم، وما كان الإسلام يبيح لأحد أن يفعل ذلك، ولم يكن أحد لينزل أذى أو ضررًا بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم، وبيعهم وصوامعهم وكنائسهم[3].

وقد أكدت السنة النبوية على حرمة دماء غير

hiragate.com

المسلمين، فعن عبد الله بن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: "من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا" (رواه البخاري).

وعن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من قتل معاهدًا في غير حق حرم الله عليه الجنة" (رواه الإمام أحمد).

وكان النبي ﷺ يحضر ولائم أهل الكتاب، ويغشى مجالسهم ويواسيهم في مصائبهم، ويعاملهم بكل أنواع المعاملات التي يتبادلها المجتمعون في مجتمع يحكمه قانون واحد. فقد كان يقترض منهم نقودًا ويرهنهم متاعًا، ولم يكن ذلك عجزًا من أصحابه عن إقراضه؛ فإن بعضهم كان ثريًّا، وكلهم يتلهف على أن يقرض رسول الله، بل كان يفعل ذلك تعليمًا للأمة، وتثبيتًا عمليًّا لما يدعو إليه من سلام ووئام، وتدليلاً على أن الإسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيه من غير دينهم.

وكان عمر بن الخطاب بالشام، وقد حانت الصلاة وهو في كنيسة القيامة، فطلب البطريق من عمر أن يصلي بها، وهمّ أن يفعل، ثم اعتذر بأنه يخشى أن يصلي بالكنيسة فيدّعي المسلمون فيما بعد أنها مسجد لهم فيأخذوها من النصارى.

وكتب للمسلمين كتابًا يوصيهم فيه بألاّ يصلوا على الدرجة التي صلّى عليها، إلا واحدًا واحدًا، غير مؤذنين للصلاة وغير مجتمعين[٤].

إن هذه ليست سماحة فحسب، وإنما هي سماحة مضاعفة تتخطى الحاضر إلى المستقبل.. سماحة مضاعفة تنبع من نفس طاهرة، وتعتمد على بصيرة نفاذة بعيدة المرمى.. سماحة مضاعفة لأن صاحبها لا يعتمد على سماحته وحده، ولا على تحلله من التبعة وحده، إنما يريد ممن يجيئون بعده -طال الزمن أو قصر- أن يكونوا سمحاء مثله.

وبينما هو يسير بالشام، لقيه قوم من نصارى أذرعات، يلعبون بالسيوف والريحان أمامه -كما تعودوا أن يفعلوا في الاحتفال بالعظماء- فقال ردوهم وامنعوهم؛ لأنه كان يكره الأبهة ومظاهر الملك، فقال أبو عبيدة بن الجراح ﷺ: يا أمير المؤمنين هذه عادتهم، وإنك إن تمنعهم يروا في نفسك نقضًا لعهدهم، فقال عمر: دعوهم عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة".

إن الإسلام لا يريد "الصراع" الذي ينهي "الآخر". كذلك يرفض الإسلام الفلسفات التي اعتبرت القتل والقتال وإزهاق الأرواح جبلة جُبل عليها الإنسان، وغريزة من غرائزه المتأصل فيه.

أعرفت لماذا استجاب عمر لرأي أبي عبيدة ﷺ؟ لقد خشي أن يظنوا أنه مبغض لهم، عازم على نقض عهده معهم، وبحسبه من السماحة أن احتمال هذا الظن وحده جعله يغير من عادته، فرضي أن يلعبوا أمامه بالسيوف والريحان.

ومر برجل يسأل على الأبواب، وكان الرجل شيخًا ضريرًا، فقال له عمر ﷺ: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال عمر: فما الذي ألجأك إلى ما أرى؟ قال: الجزية والحاجة والسن. فأخذ عمر ﷺ بيده، وذهب به إلى منزله وأعطاه مما وجده، ثم أرسل إلى خازن بيت المال وقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، ووضع عنه الجزية[٥].

إن الإسلام بتعاليمه السمحة، يرسخ لثقافة التعايش السلمي في ظل التعددية الدينية. فلقد اتسع المجتمع الإسلامي على عهد رسول الله ﷺ، ومن بعده على مر العصور الإسلامية، لجميع الأديان، وكفل عمليًّا حرية الإنسان غير المسلم في ممارسة شعائر دينه، وليس ذلك فحسب، بل عمق الصلات الاجتماعية والثقافية والفكرية، وغير ذلك بين المسلمين وأهل الكتاب من النصارى واليهود وأرباب الملل الأخرى، ليتعايش الناس في سلام وأمان. ■

---

[*] الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية / مصر.

الهامش

[١] مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، للدكتور محمد حميد الله، ص:١٦-٢١.

[٢] المصدر السابق، ص:١١١.

[٣] حقائق وشبهات حول الحرب الدينية، للدكتور محمد عمارة، ص:١٦٠-١٦٨.

[٤] تاريخ الطبري، ٤/١٦٧.

[٥] الخراج، لأبي يوسف، ص:٧١.

hiragate.com

د. جمال بن فضل الحوشبي*

بأي ذنب أُغلقتْ؟

قبل أسبوع من كتابة المقال التقيت بقرابة خمسين من طلاب الجامعة الوافدين للدراسة في بلد الله الحرام، معظمهم من دول البلقان والقوقاز والجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى، ومعهم عدد آخر من الأساتذة الأكاديميين بالجامعة.

كان اللقاء حول "الواقع الدعوي بين التشخيص والتفعيل"، وقبل أن أنهي الحديث خاطبتهم قائلاً: سأترك لكم الحديث الآن.

- في ضوء ما سمعتم، ما المشروع الدعوي الذي ستحملونه في المستقبل؟ وكيف تقومون بتشخيصه وتفعيله؟

وتركت المجال للجميع..

وحين انتصف عدد المشاركين، قال أحدهم وكان طالبًا في مرحلة الدكتوراه من جمهورية داغستان:

- سوف أبدأ بالتعليم.. وسأقوم بتأسيس مدرسة تضم الجميع في العاصمة. ما يهمّ هو بناء الإنسان، ولذا سأتفرغ لتربية الجيل الأول من طلاب المدرسة، ومن خلالهم سأنطلق في بناء مدارس مماثلة على مستوى الجمهورية.

ثم أخذ يسترسل في ذكر تفاصيل وأهداف ذكَّرتني بتجربة الأستاذ "كولن" الأولى بمدرسة "يَمَنْلار" في مدينة أزمير عام ١٩٨٢م.. بل كأنه يستعرض في مشروعه المستقبلي ما قام به الأستاذ في الثمانينيات!

قاطعتُه:

- هل تعرف الأستاذ فتح الله كولن؟ وهل قرأت تجربته الدعوية؟

- كلا..

ارتفع صوت أحد الطلاب من الطرف الأيسر للمجلس:

- قلتَ فتح الله كولن؟ ما الذي تعرفه عنه؟

استوقفتني ردّة فعله الفجائية، وطلبت أن يتوجه إليه الميكرفون المتنقل.

- بل قل ما الذي لا أعرفه عن فتح الله كولن!؟

كان معي اثنان من الإخوة يعلمان جيدًا مشروع الخدمة، ومَن أستاذها، وما سمات رجالها.

ابتسما حين سمعا ما سمعت، وأدركا -كالعادة- بأن صفحة جديدة من اللقاء أوشكت أن تبدأ.

أجاب بكل أدب:

- أنا من قازان، وخريج إحدى مدارس الخدمة هناك.

فرِحت لسماع هذا الكلام، وفرح الإخوة معي..

- أخبرْني عن تجربتهم الدعوية كما عشتها أنت. ما الذي وجدت في مدارسهم؟ وتقيد بالضوابط التي تناولناها في اللقاء حول تقييم العمل الدعوي.

قاطعني منسق اللقاء بأدب -وكان أستاذًا وقورًا- وهمس في أذني بأن أتجاوز الموضوع إلى موضوع آخر.. وكأنه وجِل من سماع اسم الأستاذ ومن تبعات ما سيدور في النقاش.

تلمّست الوجل الموهوم في نبرات صوته مناجيًا، فما حدث في تركيا كان مزلزلاً بحق، وبسببه تساقط الكثير من شجرة القيم كتساقط أوراق الخريف، وانقلب أكثرهم محذّرين بعد أن كانوا معجبين مصفقين، ووقعوا في شخص الأستاذ كولن بعدما كانوا يخلعون عليه ألقاب التكريم وأوسمة الفخار، ونالوا من الخدمة ورجالها ومؤسساتها جهلاً، أو حقدًا.

عذرت صاحبي وأدركت أننا في زمن صعب؛ غابت فيه الحقيقية، وقلّ المنصف، وعزّ الناصح، حتى بات الأمر كما قال الأول:

إِذا قِيل فِي الدّنيا خَلِيلٌ فَقل: نعمْ

خَلِيل اسْم شخص لَا خَلِيل وَفَاء

وَإِن قيل فِي الدّنيا جواد فَقل: نعم

جواد رَكُوبٍ لَا جواد عَطاء

أجبته بأدب:

- لا بأس هذا أيضًا من صلب موضوعنا الذي استضفتني لأجله، وهو تطبيق عملي كما ترى.

ثم سألت الطالب أن يواصل حديثه..

- أنا طالب في الدراسات العليا بالجامعة، وقد درست في مدارس الخدمة بقازان خمسة أعوام.

سأله الطالب الأول مستوضحًا:

- ما الذي يميزهم عن غيرهم؟

- أبرز ما أعجبني في هؤلاء المدرسين، الصدق والأخلاق؛ أخلاقهم رفيعة، لم أجد حتى الآن من هو أحسن منهم أدبًا، ولا أنبل خُلقًا.

-الأخلاق شيء جميل، لكن سمعت أنّ هذه المدارس لا تقوم بمهمة الدعوة.

قاطعه أحد الأساتذة، ثم واصل حديثه:

- مدارسهم تهتم بالعلوم التطبيقية المادية فقط.

- على العكس، لم أجد أحرص منهم على الدعوة والتربية، لكن هناك فرق جوهري بينهم وبين غيرهم من المعلمين.

اكتملت مراسم تجهيز وجبة العشاء، وأدركت بأن النقاش سيحرّك ساكنًا، ويبرّد ساخنًا..

- هؤلاء طراز فريد جدًّا من الدعاة.

أردف (طالب الخدمة) وهو يسرد بعض ما أبهره في مدرسة قازان:

- كما لم أجد مثلهم في الصدق والأخلاق، لم أجد مثلهم كذلك في "الحكمة" والحرص على هداية الناس. لا يتكلمون كثيرًا عن الإسلام -كما يفعل غيرهم- بل تتكلم عنه أخلاقهم وأعمالهم. لا يجد من لا يعرفهم شيئًا من مظاهر التديّن في مدارسهم، لكنه يشعر به في كل شيء من حوله، كل شيء يثبت أن لديهم رؤية دعوية فريدة بلا شك. ومع أني لا أعلم تفصيلها إلا أني كنت ألمسها بوضوح في حرصهم علينا وحسن تعاملهم معنا، واجتهادهم في تربيتنا.

قاطعه أستاذ أكاديمي آخر:

- لا تنس بأن سلامة العقيدة هو الأهم، هل وجدت منهم مخالفات شرعية؟

بادر أحد الأخوين اللذين حضرا المجلس معي بالجواب:

- نسمع هذا الكلام كثيرًا، وهو -مع الأسف- يصدر ممن لا يعرف عن هذه التجربة غالبًا، ولم يقرأ كتابًا واحدًا للأستاذ كولن، ولم يزر هذه المدارس، بل ولم يجلس مع هؤلاء المدرسين ويسمع منهم.

قاطعه ذلك الأستاذ:

- وهل تعرف أنت شيئًا عن منهجهم؟

أجبته بأدب:

- نعم، يعرف ذلك جيدًا يا أستاذي. فقد كان أحد المشاركين معي في كتاب "مقامات الإيمان" للأستاذ كولن،

hiragate.com

والـذي اسـتغرق منـا فتـرة طويلة مـن الجمـع والمراجعة، وسـوف أهديـك نسـخة منـه فـي لقـاء آخـر. لكـن دعونـا نسـتمع إلـى الطالـب فهو أصدق شـاهد. أجـاب الطالب:

– بالفعل سمعت شيئًا من هذا الكلام.

أجبته مستوضحًا:

– أيّ كلام؟

– ما يتعلق بالمخالفات العقدية والتجاوزات الشرعية التي يقعون فيها، بحسب المكان الذي يدرّسون فيه.

– قبل أن تكمل حديثك.. هلا ساعدتني –رجاء– في إكمال هذه الآية الكريمة على لسـان إخوة يوسـف حين قالوا لأبيهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا...﴾.

أجاب على الفور:

– ﴿عَلِمْنَا﴾.

– ﴿عَلِمْنَـا﴾ إذن وليـس ﴿سَـمِعْنَا﴾، وهـذا مـا أريده منـك، لقـد سـمعنا أكثـر مما سـمعت.. وما نحتـاج منك فـي هـذا المجلس أن تـروي لنا ما "علمـتَ" هناك طوال خمس سنوات، لا ما "سمعت" مدة بقائك هنا.

– أما معرفتي بهم فكما أخبرتكم.. لم أجد مثيلاً لهم فـي الحرص علـى الدعوة والتربية والتعليـم. كانوا طوال اليوم الدراسي يعلموننا بأساليب حديثة، ويُظهرون عظمة الله تعالـى وصلاحيـة الإسـلام وإعجـاز القـرآن الكريـم، ويُسـقطون النظريـات الإلحاديـة بطريقـة ذكية جـدًّا وغير مباشِـرة.. وبعـد صـلاة العصـر يأتوننـا فيعلموننـا القـرآن والوضـوء والصـلاة، ويقومون الليل معنا.. كنا نشـعر بأنا عائلتهـم الحقيقيـة، ونسـتهلك معظـم أوقاتهـم. حفظـت الكثيـر من الأوراد والأذكار علـى أيديهم. لاحظ والداي كيف أصبحت أكثر تأدبًا معهما عن ذي قبل بعد دخولي هـذه المدرسـة. كنـا نجتمـع كل يـوم معهـم فـي سـكن المدرسـة.. نقـرأ القـرآن وندرس السـيرة النبويـة، ونتعلم أمـور ديننـا. بـل لقـد كان لأحـد معلمـي هـذه المدرسـة الفضـل فـي افتتـاح أول حلقـة تحفيـظ للقـرآن الكريـم بالمدينة، وبسبب ذلك تعرض للمساءلة من قِبل الشرطة.

– إذا طُلـب منـك أن تؤسـس مشـروعًا دعويًّـا فـي المستقبل، فهل ستستفيد من هذه التجربة؟

– بالطبـع.. الطالـب فـي مدرسـة الخدمـة لا يضيـع بعد تخرجه، بل يظل محلّ اهتمام المعلمين والإداريين. وهـم ينفقون الكثير من أموالهم لضمان حصوله على بعثة دراسية جامعية تليق به، وقد عرضوا عليّ شخصيًّا منحة دراسـية في تركيا. تخيّل.. عشـرات الألوف من الليرات ينفقونهـا مـن جيوبهـم فقط؛ ليكـون هذا الطالـب مؤهلاً وقادرًا على نفـع بلده حالما يعود إليه بعد التخرج.

علّق أحد الحاضرين:

– سمعت أن كثيرًا من هذه المدارس أغلقت في تركيا!

– نعـم، هـذا صحيـح. جميعها تقريبًا، بما يفوق ألف مدرسـة، عدا عشـرات الجامعات والمعاهـد.. وكثير من هـذه المـدارس الرائدة خارج تركيـا أصبح يضيّق عليها، ويسـعى البعض إلى إغلاقها لحجـج واهية وتهم باطلة. أعـرف عـددًا مـن الطـلاب الذيـن حصلوا علـى منح في تركيـا للدراسـة بهـذه المـدارس حرموا الآن مـن التعليم الراقـي فـي هـذه المـدارس بسـبب إغلاقهـا، ومـع أنهم انتقلوا لمدارس وجامعات أخرى، إلا أنها لم تكن تصل بحال من الأحوال لمستوى تلك المدارس والجامعات، سواء في مجال التربية أو التعليم أو الإدارة.

تدخل منسق اللقاء لينهي الحوار:

– لا نسـتطيع التأخـر أكثـر مـن ذلـك، فقـد أصبـح العَشاء جاهزًا.

لكن الحديث عن هذه المدارس وعن تجربة الخدمة وأثرهـا العميـق فـي نفـوس مـن عرفهـا، أو اسـتفاد مـن خدماتهـا لـم ينقطـع طوال وجبة العَشـاء، وأصرّ بعضهم أن يبقـى إلـى سـاعة متأخـرة مـن الليـل.. يناقش ويسـأل عن أسـباب إيقاف هذا الخير العميم، ويتأمّل في الأبعاد الحضاريـة والتربوية لهذه التجربة الفريدة، وكيف يمكن أن تتحـول إلـى مصدر إلهام وعزيمة وإصرار لعشـرات، بـل مئات المشـاريـع الأخرى في أرجـاء العالم رغم كل صور الظلم ومحاولات التشويه وطمس الحقائق.

قلت للصقـر وهـو فـي الجـو عـال
اهبـط الأرض فالهـواء جديب
قال لي الصقر: في جناحي وعزمي
وعنان السماء مرعى خصيب. ■

(*) مدير تحرير مجلة مكة، والمشرف العام لمركز رؤية الثقافي / المملكة العربية السعودية.

hiragate.com

د. إيهاب عبد السلام*

الصابرون

تَمْضِي الحَيَاةُ وَيَنْتَهِي الأمَلُ ... والسَّعْدُ لا قَوْلٌ ولا عملُ

صَدَق الذين يقولُ قائلُهم: ... هيهاتَ أنَّ الفَرح يكتَمِلُ

الصَّابِرُونَ طَرِيقُهُمْ تَعِبَتْ ... لَكِنَّهُمْ للآنَ مَا وَصَلُوا

العَاشِقُونَ وَعِشْقُهُمْ ألَمٌ ... وَمَتَى رَأَيْتَ العِشْقَ يُحْتَمَلُ؟

وَمَضَوْا وَكَفُّ الدَّهْرِ تَصْفَعُهُمْ ... فَكَأنَّ صَفْعَ زَمَانِهِمْ قُبَلُ

بِحَلَاوَةِ الإيمَانِ قَدْ مَزَجُوا ... مُرَّ الحَيَاةِ فَإذْ بِهِ عَسَلُ

وَيَرَوْنَ أنَّ حَيَاتَهُمْ حُلمٌ ... سِيَّانَ مَاتُوا فِيهِ أوْ قُتِلُوا

هُمْ يَصْحَبُونَ المَوْتَ مِنْ صِغَرٍ ... يَسْتَبْشِرُونَ إذَا دَنَا الأجَلُ

إن يُجْهَلُوا جِبْرِيلُ يَعْرِفُهُمْ ... فَهُمُ الرِّجَالُ وَدُونَهُمْ هَمَلُ

يَتَحَمَّلُونَ لأجْلِ مَبْدَئِهِمْ ... هَمًّا يَنُوءُ بِحَمْلِهِ الجَمَلُ

إبْلِيسُ حَاوَلَ أنْ يُحَوِّلَهُمْ ... مَا مَلَّ لَكِنْ مَلَّتِ الحِيَلُ

هُمْ يَسْمَعُونَ لأمْرِ خَافِقِهِمْ ... لَا يَنْتَهِي إلَّا وَقَدْ فَعَلُوا

سَيَنَالُهُمْ يَأسٌ وَيُدْرِكُهُمْ ... لَوْ أُدْرِكَتْ بِنُوَيْقَةٍ زُحَلُ

(*) شاعر مصري.

د. محمد السقا عيد*

الألوان
في عالم النبات والحيوان

لقد انصرفت جهود بعض الباحثين إلى دراسة ألوان الحيوانات بالفحص والتحليل، محاولين معرفة سر الألوان واختلافها عن بعضها، كما اهتم العلماء ببحث ودراسة كيفية رؤية الحيوانات لما حولها من الألوان المختلفة، وتوصلوا إلى نتائج مثيرة نعرض طرفًا منها في هذه السطور.

الألوان في عالم النبات

أما النباتات، فالأضواء يمكن أن تغير ألوانها، وتساعد على نموها، وقد تعرقل هذا النمو.. فقد أثبتت سلسلة من التجارب أن الضوء البنفسجي يساعد على نمو العنب، والضوء الأحمر يساعد على إنبات الحبوب

والبذور، فيما يساعد اللون الأحمر والبرتقالي والأصفر على نمو الخلايا الصغيرة، أما الألوان الأخضر والأزرق والبنفسجي، فتبطئ من نمو تلك الخلايا.

فمن خلال تجربة شهيرة، تبين أن زراعة النبات تحت غطاء من القش أو التبن الأحمر، يساعد على زيادة المحصول وتحسين نوعيته. بدأت التجربة بوضع مجموعة من الخطوط المتعددة الألوان، ومع كل لون غرست بذور نوع من نبات، ثم تابع العلماء المراحل المختلفة لتحول البذور إلى ثمار كاملة.. والنتيجة كانت مدهشة؛ فقد حملت الخطوط الحمراء محصولاً أوفر وأفضل من بقية الخطوط التي تحمل ألوانًا أخرى، خصوصًا محصول الطماطم والقطن والفاصوليا. قدم العلماء التفسير الآتي: إن أشعة الشمس تتحلل عادة إلى ألوان الطيف المعروفة ومن بينها درجة اللون الأحمر، تتفاعل أمواجها مع اللون الأحمر المزروع، وتكون النتيجة نمو محصول أكبر وأفضل.

كذلك نجد أن الأشعة فوق البنفسجية والزرقاء، تساعد في تكوين اللون الأحمر في ثمار التفاح. أما بالنسبة للنمو فالأشعة فوق البنفسجية تعتبر ضارة وتؤدي إلى تقزم النباتات، ولها تأثير على النباتات النامية على قمم الجبال، في حين أن الأشعة الحمراء تسرع من إنبات بعض البذور، بينما الإشعاع الأحمر البعيد، له تأثير سلبي على إنبات البذور.

يزيد الضوء من نسبة الإنبات في بعض المحاصيل مثل "الخس" (Lactuca sativy)، وكذلك يتأثر إنبات نبات الجزر، في حين تزداد نسبة الإنبات في الظلام لنبات الأبصال (Liliaceae).

إن بعض النباتات والتي تعرف بنباتات النهار القصير -مثل نبات الدخان- عُرف بأنها تزهر عندما تكون ساعات النهار قصيرة وساعات الظلام طويلة، ولكنها لا تزهر تحت ظروف أخرى من طول النهار. كما أن البعض الآخر من النباتات (نباتات النهار الطويل والليل القصير، مثل السبانخ تزهر فقط عندما يكون النهار طويلاً والليل قصيرًا)، كما أن هناك مجموعة ثالثة من النباتات (الطماطم والقطن) تعرف بنباتات النهار المحايد ليس لها أفضلية بالنسبة لطول النهار لكي تزهر.

يزهر نبات الدخان عندما تكون ساعات النهار قصيرة وساعات الظلام طويلة، ويزهر السبانخ عندما يكون النهار طويلاً والليل قصيراً، أما الطماطم والقطن فهما نباتات النهار المحايد ليس لها أفضلية بالنسبة لطول النهار لكي تزهر.

تشهد بعض النباتات أيضًا، تغييرًا في ألوانها، فالأوراق الخضراء لبعض أشجار الغابات -كما هو حال القيقب- تتحول من الأصفر إلى البرتقالي فالأحمر في فصل الشتاء. تحتوي هذه الأوراق على تنوع من الأصباغ كالكلوروفيل الأخضر بلا شك، ولكنها تحتوي أيضًا على البرتقالي والأصفر إلى جانب الأحمر.

في الصيف يعم الكلوروفيل الأخضر ليخفي الألوان الأخرى، أما في الشتاء -وبما أن اليوم يصبح أطول- تقل نسبة الكلوروفيل وتسيطر الألوان الأخرى على الموقف لبضعة أيام فتعم الغابة ألوانًا زاهية قبل أن تغط في نوم عميق طوال فصل الشتاء.

الألوان في عالم الحيوان

تساعد الألوان الحيوانات على التعرف بأقرانهم، فأم الكتاكيت -مثلاً- تفهم فراخها أهي بحاجة إلى الطعام أم ليست بحاجة، وبالمثل يدرك الفرخ أمه بهذه الطريقة ويفهم أن الطعام قد وصل أم لا. فهذه الكائنات الحية تحتاج إلى معرفة معاني الألوان من أجل البقاء على قيد الحياة، ومن أجل تحقيق هذه المعرفة بشكل صحيح،

فإنها تحتاج إلى امتلاك أنظمة سليمة للإدراك، وإذا لم يكن لديها تلك الأنظمة، فإنها لن تكون قادرة على إدراك البيئة المحيطة بها بشكل صحيح، أو القيام بأنشطتها الحيوية، ولن تكون قادرة على التعرف على الطعام أو تمييز الأعداء.. لذلك وفي هذه الحالة الأخيرة، فإنها تتجنب العالم الخارجي كي لا تكون فريسة سهلة محكوم عليها بالموت.

أثبتت بعض التجارب أن الدجاج إذا تعرض لضوء صناعي ملون، فإنه يبيض بسرعة أكثر من سرعته المعتادة، وأن ديدان الأرض يجذبها اللون الأحمر، كما أن الحشرات القارضة عديمة الأرجل من فصيلة "أم أربع وأربعين" تحب اللون الأحمر والبرتقالي والأصفر وتهرب من اللون الأزرق والبنفسجي والأخضر، لكن الفراشات تحب بوجه خاص الألوان الأزرق والأخضر والبنفسجي، فيما عدا الذباب يحب جميع الألوان ما عدا اللون الأزرق فإنه ينفر منه، ولهذا نجد أن الغرف المطلية باللون الأزرق تكاد تخلو من الذباب.

عندما تتلون الحيوانات

يعكس عالم الحيوانات تنوعًا كبيرًا من الألوان، فسواء كانت مشعة أو هادئة، لم تأت لمجرد هدف جمالي، بل لأهداف عدة، كالتمويه أو التخلص من أشعة الشمس فوق البنفسجية، أو لإخافة المفترسين.

يوجد في جلد الحرباء بوصيلات صغيرة تتحرك حبيباتها داخل تفرغات الخلايا، فيظهر الجسم بلون يختلف باختلاف تأثير الضوء أو الظلام. كما أوضحت التجارب أن القطط وكذلك الكلاب، لا تستطيع تمييز الألوان.

ونالت الحرباء منذ قديم الزمان شهرة واسعة في قدرتها على تغيير لونها، فقد تعرض الحرباء خلال ساعات اليوم الواحد ثوبًا مختلفًا من خلال ألوانها. والتلون في الحرباء دفاعي وقائي.. ولون الحرباء قد يختلف اختلافات بينية من الأخضر الزيتي والأخضر المشوب بالاصفرار، كما أن منها البني والأشهب. ويتغير لون الحرباء من الأخضر الداكن إلى الأخضر الفاتح حسب الظروف التي تؤثر على الحيوان، إذ يوجد في جلد الحرباء بوصيلات صغيرة تتحرك حبيباتها داخل تفرغات الخلايا، فيظهر الجسم بلون يختلف باختلاف تأثير الضوء أو الظلام، وكذلك لون الوسط المحيط، بالألوان ودرجة الحرارة على المكونات الخاصة بالخلايا الجلدية.

كذلك تقوم بعض الحشرات بتغيير لونها الأصلي إلى لون آخر جديد، وذلك إما للهروب من الأعداء، أو لتسهيل الهجوم على فريستها، ومثال ذلك حشرة السرعوف الهندي (فرس النبي الهندي) الذي يتجمع في لون وشكل بتلات الزهور، فتظنه الحشرات الأخرى زهرة فتحوم حوله إلى أن تقع دون احتراس فريسةً له.

وهناك أيضًا بعض الحشرات التي وهبها الله أسلحة للدفاع، إذ يكون هذا التسلح مصحوبًا بألوان مميزة. وهذه الحشرات غالبًا ما تكون سامة، أو لها طعم منفر، أو رائحة كريهة، ومثال ذلك الزنابير اللاسعة التي يغلب عليها الألوان الصفراء والحمراء والخضراء المميزة.

إن حشرة لها نفس لون زهرة ما.. وثعبان لا يزال قائمًا على فرع شجرة بنفس اللون.. وضفدع قد تكيف مع لون الأرض الرطبة.. باختصار، فإن كل المخلوقات تقوم بالتمويه على نفسها، وهذا دليل أن التمويه هو تكتيك دفاعي محض قد خلق لذلك الغرض.

ألوان الطيور

إن ألوان الطيور هامة كي تتكيف مع بيئتها، وكي تتعرف على بعضها البعض. والملفت للنظر هو أن الأصباغ تعطي اللون للريش وتعزز قوته، وتخزن الطاقة القادمة من الشمس، وتمنع الأشعة فوق البنفسجية الضارة من الدخول إلى جسم الطير.

سر جمال الطاووس

جمال الطاووس في ألوان ريشه، ولكن ما هو مصدر هذه الألوان؟ إن مصدر الألوان البديعة التي تتراءى لأعيننا في ريش الطاووس وريش كثير من الطيور الأخرى، هي ما تتضمنه بنية هذا الريش من فقاقيع هوائية كمنت بمقادير مختلفة وعلى أوضاع مختلفة بين طبقات هذا الريش، فإذا سقط ضوء الشمس عليها انعكس، وتحلل إلى الأخضر والأصفر والأحمر.

هل يميز النحل الألوان؟

يستطيع النحل أن يميز ألوانًا كثيرة، كما ينجح في تمييز اللون فوق البنفسجي الذي لا يراه الإنسان. ولكنه لا يميز اللون الأحمر، فهو يبدو أمامه وكأنه أسود.

الحمام الزاجل كيف يرى الألوان؟

قام العلماء بتغطية عين الحمام الزاجل بمناظير مختلفة الألوان من السليوليد، وأطلقوه في الجو ليدرسوا تأثير الألوان المختلفة على عينيه، وليروا هل سيعود الحمام الزاجل إلى بيته أم لا؟ وقد دلت نتائج التجربة على أن المناظير ذات الألوان الصفراء والحمراء، لا تعوق الحمام عن عودته، فهو يرى خلال هذين اللونين أمامه بوضوح. أما المناظير ذات اللون الأخضر والأزرق، فقد عاقت الحمام الزاجل من العودة إلى داره، إذ بدت الدنيا أمامه وكأنها ظلام.

الدجاج واللون البنفسجي

قام العلماء بتجربة نثر الحبوب موزعة على ألوان الطيف السبعة أمام مجموعة من الدجاج، ولاحظ العلماء أن طيور الدجاج قد التقطت كثيرًا من الحبوب من مناطق الألوان الأحمر والأصفر والأخضر، بينما التقطت قليلاً من الحبوب من منطقة اللون الأزرق، ولكنها لم تقترب مطلقًا من منطقة اللون البنفسجي. ومن الملاحظ عمليًّا هو عدم وجود طعام للطيور لونه أزرق أو بنفسجي.

هل تميز الحيوانات الألوان؟

أوضحت التجارب أن القطط وكذلك الكلاب، لا تستطيع تمييز الألوان. كما أثبتت التجارب أن القردة تستطيع تمييز الألوان.. ومن التجارب التي أجريت في هذا الصدد، أن قام العلماء بتدريب بعض القردة على التوجه إلى خزانة طعامها المطلية بلون معين. ولقد أظهرت القردة بعد ذلك إغفالها للخزانات الأخرى التي طليت بألوان تخالف اللون الذي تعودت عليه.

أثبتت بعض التجارب أن الدجاج إذا تعرض لضوء صناعي ملون فإنه يبيض بسرعة أكثر من سرعته المعتادة، وأن ديدان الأرض يجذبها الأحمر، والفراشات تحب الأزرق والأخضر والبنفسجي، كما أن الذباب يحب جميع الألوان ما عدا الأزرق.

ثور المصارعة والقماش الأحمر

يعتقد العلماء أن معظم الثدييات مصابة بعمى ألوان، ويقول العلماء أن اللون الأحمر لا يثير ثور المصارعة كما قد يظن، وأن ما يثير الثور هو حركة قطعة القماش أمامه مهما كان لونها. ويعزي العلماء سبب عمى الألوان لدى بعض الثدييات إلى طريقة معيشتها، فأغلبها يخرج للبحث عن قوته ليلاً، كالأسد، والخرتيت، وبقر الوحش، وغيرها.

إن الكائنات الحية، لديها قانون لغة اللون الذي يعمل وفقًا للضوء ونظم الإدراك التي تمتلكها.

إن تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة، معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث، فضلاً عن معجزة الحياة النامية في الشجر، وهي السر الأكبر الذي يعجز عن فهمه البشر. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون / مصر.

صالح القاضي*

القرصنة الرقمية

١

القرصنة أو التحميل غير القانوني لوسائل الإعلام الرقمية بدءًا من عام ٢٠١٢ ظهر على الساحة السياسية في أمريكا، حيث قام الكونجرس الأمريكي بتقديم اقتراحين قانونيين؛ الأول أطلق عليه (SOPA) أو وقف القرصنة عبر الإنترنت، والثاني متعلق بحماية الحرية الفكرية. وكلا المشروعين كان يستهدف منع التحميل والاستخدام غير المشروع لوسائل الترفيه والإعلام الإلكترونية، مثل ألعاب الفيديو والموسيقى والأفلام.. إلخ. لكن العديد من المستخدمين رأى أن هذا تدخل سياسي يطول حرية التعبير الإلكترونية. وهكذا انطلقت المظاهرات المناهضة لمشروع القانون، وهو الأمر الذي دعا الرئيس الأمريكي أوباما -في ذلك

الوقت- إلى التصريح بأنه لن يقبل مشروعي القانون، وقام الكونجرس بتأجيل الحديث عن مشروعي القانون. وفي الوقت الذي يحاول فيه المجتمع والشركات والحكومات التصدي للقرصنة، من المهم فهم السبب الكامن وراء قيام الأشخاص بقرصنة البرامج.

فهم تكلفة وفوائد القرصنة

في البداية نريد أن نفهم القرصنة بغض النظر عن الجانب الأخلاقي أو الأحكام المعيارية، فالقرصنة فعل كغيره من الأفعال له تكلفة وفوائد. ويبين حساب المنفعة أو تحليل التكلفة والعائد، أن الفوائد المادية تفوق بكثير أدنى التكاليف المادية للقرصنة؛ فعادة ما يكون لوسائل الإعلام الترفيهية سعر يجب على المستهلك دفعه، مثل شراء تذاكر لمشاهدة فيلم في السينما. من ناحية أخرى، وبالنظر إلى أن الفرد يمتلك المعرفة التقنية، يمكن للفرد الحصول على نفس الترفيه مجانًا إذا اختار قرصنة وسائل الإعلام بدلاً من شرائها. وفي حين يتم القبض على بعض هؤلاء ليدفعوا رسوم خدمة الترفيه.. إلا أن احتمال وقوع هذه النتائج السلبية صغير نظرًا لعدم وجود عوامل خارجية أخرى.

بالإضافة إلى أننا إذا نظرنا للأمر من الناحية السلوكية، فسنجد عملية القرصنة منطقية إلى حد كبير، فعندما يقدم الشخص على قرصنة وسائل الترفيه الإلكترونية، يحصل على المنفعة بصورة مباشرة، فالتكلفة هنا قليلة للغاية ونسبة المخاطر أيضًا ضئيلة. وبالمقارنة مع السرقة الفعلية لـ"DVD" أحد الأفلام من أحد مراكز التسوق، نجد أن مخاطر القرصنة لا تتعدى ضغطة زر بريئة.. وإذا تأملنا فيما إذا كان يجب سرقة قرص DVD آخر لفيلم ما، فإن الشخص سوف يزن ما إذا كانت الفائدة الترفيهية تستحق أن يعاني من الإجهاد والمخاطر الكبيرة التي قد تؤدي إلى تعرضه للمساءلة القانونية. قارن هذه الحالة بالتفكير في تحميل فيلم بشكل غير قانوني، وكل ما سيحتاج إليه الشخص تحديد ما إذا كانت فائدة الترفيه أكبر من الضغط على بعض الأزرار، ومع مثل هذه المخاطر المنخفضة والإشباع الفوري، فإن سلوك القرصنة يترسخ بسهولة.

وبهذا التحليل للمنفعة والتكلفة المجرد عن الأخلاق والمبادئ والدين يظهر لنا سبب انتشار القرصنة، فالقرصنة سهلة ومجدية في الحصول على المنفعة، ولكن على كلٍ فالبشر لا يعيشون مجردين في خواء من الأفكار والأخلاق والمبادئ والدين.

القرصنة من الجانب الأخلاقي

لو كانت القرصنة سرقة، فهي غير أخلاقية ولا تتفق مع المبادئ. وهي بالتأكيد سرقة، فكل وسائل الإعلام الإلكترونية -سواء أكانت فيلمًا أو موسيقى أو كتابًا أو لعبة إلكترونية- جميعها منتجات لعمل وجهد شاق، مثلها مثل المحصول للمزارع، أو الكتاب للعمل الأدبي.. فالوسائط الرقمية ما كانت لتوجد لولا الجهد الذي يقوم به المنتج، والمنتج له حق الملكية على الإعلام الرقمي عن طريق الإنتاج وقوانين حقوق النشر. والحقوق الرقمية الحديثة، هي دليل على وجود هذه القاعدة الاجتماعية إذن. والسؤال الواجب سؤاله في هذا الصدد: إذا كانت القرصنة فعلاً خاطئًا، فلماذا يقوم الأفراد بالقرصنة على الوسائط الرقمية؟

الإجابة، عندما يكون لدى الشخص اختيار بين الدفع للحصول على الترفيه أو استهلاكه بصورة مجانية، يحدث صدام بين المبادئ الأخلاقية والرغبة، وفي محاولة للتوفيق بين هذا التناقض بين الضمير المؤنب والرغبة، يبدأ الأفراد بإيجاد المبررات التي دفعتهم إلى القيام بالقرصنة؛ فقد يقول الفرد هذه الشركات المنتجة في غاية الثراء ولن يصيبها أدنى ضرر، أو قد يقول الشخص إن أوضاعه المالية لا تسمح له بدفع قيمة المنتج ما يجبره على القيام بهذا العمل عن طريق غير قانوني.. وهكذا، فمن خلال تلك المبررات يستطيع الأفراد القرصنة بلا تأنيب للضمير.

تبرير القرصنة

بالإضافة للمبررات العامة لأي انتهاك أخلاقي، فالقرصنة لها مبررات فريدة من نوعها تتطابق مع فرادة الوسائط الرقمية، وهي أن القرصنة الرقمية لا تمثل أي ضرر للمنتج، ولا تمثل خسارة لإرادات المنتج، سواء أكان المنتج لعبة رقمية أو فيلما أو أغنية، طالما

hiragate.com

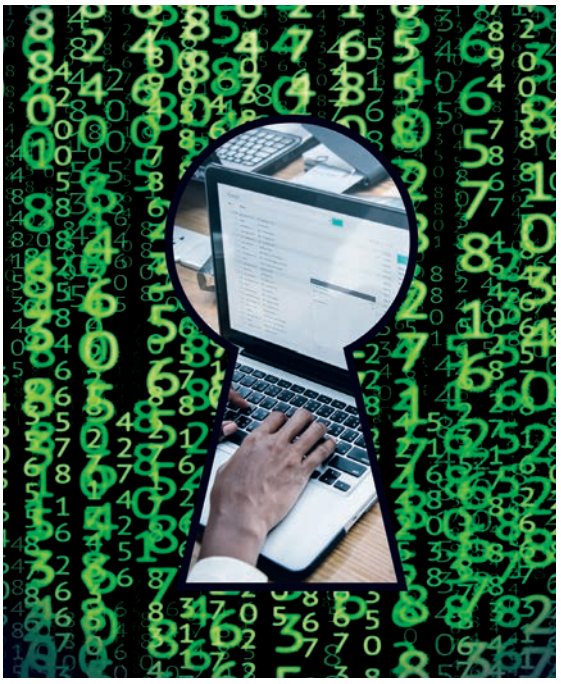

أخذت الوسيلة الإعلامية الترفيهية الصورةَ الرقمية. نعم لا تعد قرصنة لعبة رقمية خسارة مباشرة للمنتج، ولكن إذا تم سرقة ساعة من إحدى مراكز التسوق، ألا يمثل هذا ضررًا للشركة المنتجة لأنه في حالة ما بيعت كانت ستعوض جزءًا من تكلفة المنتج لدى المصنع.. والقرصنة كذلك؛ فقيام الشخص بقرصنة لعبة رقمية، يعني عدم قدرة المنتج على تسويق اللعبة الرقمية وإقناع الآخرين بشرائها، وسيؤدي ذلك إلى أضرار وخسائر كبيرة للمنتج، بينما الذين يعتقدون أن استخدام الوسائل الترفيهية للمنتجات الرقمية لا تضر المنتج، ستصبح القرصنة لديهم فعلاً كله مميزات إيجابية.

ولكن هذا التبرير الذي يقوله هؤلاء القراصنة، به علتان معيبتان الأولى أن القرصنة قد تؤدي إلى خسائر مباشرة لأرباح الشركات المنتجة، فلو أقدم شخص على شراء منتج، ثم توجه -بدلاً من شراء المنتج- إلى الحصول عليه عن طريق القرصنة، فإنه بمجموع أعمال القرصنة الفردية ستتكون خسارة تراكمية فادحة للمنتج تصل لملايين الدولارات.

أما الثانية فهي أن القرصنة تشكل اعتداء على ملكية خاصة لشخص ما، وتعتبر انتهاكًا لحق ملكية الأفراد؛ فلو أن الشخص قرر أن يتقاسم ملكيته مع من يدفع قيمة منتجه، فيعد أخذها دون دفع قيمتها اعتداء على حق ملكية هذا الشخص، وهكذا يكون فعل القرصنة غير أخلاقي دون الدخول في نقاشات حول مدى الخسارة المادية اللاحقة بالمنتج.

العادة

السبب المحتمل لانتشار القرصنة هو "العادة"، فعندما يقوم الشخص بالقرصنة بالرغم من المبادئ الأخلاقية المعارضة للفعل، يختبر الشخص نوعًا من المتعة في الحصول على الترفيه بصورة مجانية، وهكذا يبدأ الشخص في الحصول على الترفيه من خلال القرصنة حتى تترسخ العادة. ويمكن أن نفهم الأمر بصورة أكثر وضوحًا باستعراض حالة لعبة الفيديو الرقمية (Proun). وهي لعبة رقمية قليلة التكلفة، وأطلقت بنظام دفع يسمى "ادفع ما تراه مناسبًا"، وهذه الطريقة تتيح للمستخدمين دفع أي مبلغ من المال مقابل الحصول على اللعبة الرقمية، أي إن للشخص الحصول على اللعبة الرقمية بصور قانونية دون أن يدفع أي شيء. وقامت الشركة بعمل الإحصاءات لتكتشف أن ٤٠٪ من الأشخاص قاموا بالحصول على اللعبة الرقمية من خلال القرصنة على الرغم من إمكانية حصولهم عليها بصورة قانونية، من موقع الشركة الإلكتروني بصورة مجانية قانونية.

هذه التجربة أثبتت أن قيمة المنتج لا تمثل السبب الوحيد وراء إقبال الأفراد على القرصنة. والتفسير المحتمل هو أن كثيرًا من المستخدمين اعتادوا على الحصول على الترفيه الرقمي من خلال القرصنة الرقمية، فمع قلة المخاطر اختار الأفراد الحصول على الترفيه الرقمي والمنتجات الرقمية بالقرصنة، وأصبح فعل القرصنة بالنسبة لهؤلاء المستخدمين فعلاً طبيعيًا إذا تعلق الأمر بالمنتجات الرقمية حتى ولو كانت متاحة مجانًا للجمهور؛ وبعبارة أخرى، أصبحت القرصنة المعتادة مشروعة في أعينهم، ولم يعد الفرد بعد أن دخل دائرة القرصنة، يضع اعتبارًا لمدى عدم أخلاقية الفعل، وهكذا أصبح كل فعل لاحق يعزز هذه العادة فقط. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

د. نصر الدين بن سراي*

إذا أردنا للمشاعر الروحية والعواطف الجياشة أن تبقى متقدة في قلوبنا لا يصيبها الشحوب، وأردنا لعشق السعي وحماس العمل أن يظلا فياضين في عروقنا؛ فعلينا تفعيل "آلية التفكر" وتعميق عملية التدبر.

الموازين

مقولة الإنسان عند العارفين

بدأت الفلسفات المعاصرة تعيد الاعتبار للإنسان بعد أن كان مركز الكون، ثم أزيحت مركزيته ليصير شيئًا مثل باقي الأشياء الموجودة في هذا العالم، ثم ما لبثت -هذه الفلسفات خاصة مدرسة فرانكفورت- تنتقد هذه الشيئية وهذه النظرة الضيقة لهذا العالم الصغير الكبير، إذ يقول فيه الحكماء "وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر".

لذا حاولت في هذه السطور أن أبين كيف حاول العرفاء إصلاح الإنسان؟ وما هي الطرق التي انتهجوها إلى لفت النظر إلى الجوهر الروحاني الإنساني؟ وبأي معنى نتحدث عن الإنسان بشقيه الروحي والمادي؟ وكيف للعرفان أن يقدم لنا نظرة تكاملية في رؤية الإنسان؟ ووفق أي تصور يحدد للإنسان معالمه الإنسانية، وآثاره وقيمته ووظيفته في هذا العالم، خاصة في ظل الأزمة الروحانية التي تبنّتها الرؤى الفلسفية المعاصرة؟

الإنسان روحاني في أصله

لننصت قليلاً للعارف جلال الدين الرومي، ليحدثنا عن هذا العالم الكبير

الصغير ألا هو "الإنسان"، حيث يقول: "فالخيال القبيح هو الذي جعل العين الحسية وعين العقل المحتجبة تريانه قبيحًا، واعلم أن هذه العين الظاهرة ظِلٌّ لتلك العين المحتجبة، فكل ما تراه عين الباطن تدور حوله عين الظاهر. وإنك أيها الإنسان "مكاني"، ولكن أصلك في "اللامكان"، فلتغلق هذا الدّكان ولتفتح ذلك الدّكان. فلا تهرب إلى هذا العالم ذي الجهات الستّ، ففي هذه الجهات أسوأ مواقع أحجار النرد، حيث تحق الهزيمة".

ولذلك يشير الله ﷻ إلى هذا المعنى في رفع مقام الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠)، فالنزعة الروحية في الإنسان مصدرها أصله الروحي، أما النزعة المادية فمصدرها ذلك العالم الحسي الذي غذاه وربى جسده. والإنسان في حقيقته قادر على الوصول إلى عالم الروح برغم ارتباطه الجسدي بعالم الحس. وفسّر مولانا جلال الدين قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ على أنه رمز، إلا أن الله كرم الإنسان بأن جعله منتميًا إلى عالمي "الروح والحس" في وقت واحد، والجمع بين الروح والحس هو سر تفضيل الإنسان على كل من الملائكة وهي كائنات روحية، وعلى الحيوانات وهي كائنات حسية. والأنبياء والرسل هم المثل العليا للكيان الإنساني، يعيشون في الأرض بهيكل ترابي وتدور أرواحهم في فلك روحي.

قدر الإنسان قدرته ونصيبه

يحلّ مولانا الرومي هذا اللغز الإنساني الذي تناطحت حوله آراء الفرق والملل في جمل بسيطة ويسيرة، موضحًا ذلك بمثال يقول فيه: "أما من كان في بداية أمره وزيرًا للملك فجعله محتسبًا لا يكون إلا من سوء فعله، فحينما يدعوك الملك من عتبة الباب إلى حضرته ثم يعود فيدفعك إلى الباب، فاعلم يقينًا أنك ارتكبت جرمًا، وأنك قد جعلت "هذا الإبعاد" بجهلك أمرًا محتمًا. وإنك لتقول: "إن هذا قد كان لي قسمة ونصيب"، إذن كان هذا الإقبال بالأمس في يدك؟ وإنك أنت الذي قطعته.. أما الرجل الكفء، فهو الذي يضاعف نصيبه".

ثم يستطرد مولانا في شرح ذلك بعبارة رائعة: "إنك لترى قدرة نفسك عيانًا في كل عمل يكون لك ميل إليه، ولكنك عندما لا يكون العمل وفق ميلك وعلى مرادك، تصبح مجبرًا وتقول إن هذا من عند الله". وهنا يسخر مولانا جلال الدين الرومي من نفاق البشر وطيشهم".

السبيل إلى تربية الإنسان

يسلك جلال الدين الرومي طرقًا بديعة ومختصرة في ذكر سبل التربية، من خلال بيان عيوب النفس الشاملة لكل العيوب، وبيان الصفات القبيحة المشنعة التي تجمع شتات القبيح من الأوصاف، ذاكرًا ذلك في قصة لطيفة، مشبهًا تلك العيوب بالطيور وهي عبارة عن رموز، وكل قراءة جديدة لروح القرآن تتناسب مع روح عصره الذي عاش فيه.

والعرفاء يركزون دومًا على مسألة "الأنا" باعتبارها أول عقبة تواجه الإنسان، لأن الأنا -سواء الفعلية أو المثالية- هي عبارة عن جبل يَحول بين الإنسان وخالقه، ولا يمكن للإنسان أن يصل إلى السعادة وهو يطلبها، وبين جوانبه لا زالت أناه تحجبه عن الوصول، وكمثال على ذلك قصة موسى عليه السلام: "فالإثنينية في مدلول الآية الشريفة بين موسى وربه في مقام المخاطبة، تدل على أن "الأنا" كانت ما تزال موجودة لدى موسى عليه السلام، ومعها لا يكون الإنسان قادرًا على تحمل التجلي التام. والعرفاء يذكرون أن المراد من الجبل في الآية ﴿وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلْ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾(الأعراف:١٤٣) هو جبل الأنانية، فلما تجلى الله ﷻ له جعله دكًّا، وخرّ موسى صعقًا، حيث حصل له التجلي التام بعد زوال جبل الأنانية".

مهمة الإنسان في الحياة

للإنسان في هذا العالم وظيفة ومهمة لا بد له أن يقوم بأدائها، وهي أمانة موكلة له، وهي تزكية ذاته وتصفية نفسه، حتى يرتقي في مدارج الإنسانية، يقول الأستاذ الدكتور جيهان أوقيوجو: "حسنًا لنبدأ موضوعنا أولاً بأهمية ترك العادات السيئة ولكني أريد قبل هذا أن أعرف ما هي غاية النضج؟ وما الذي يكسبه الإنسان بالنضج؟ لقد أُرسل الإنسان إلى هذه الدنيا لكي يكون إنسانًا حقيقيًّا، ومن نجح في هذا يكون قد نجح في أداء

hiragate.com

مهمته، وبهذا النجاح يكسب الإنسان نفسه أولاً. فمهمة الإنسان في هذه الحياة أن يبقى إنسانًا ولا ينزل إلى مرتبة الأنعام أو أسفل من ذلك، فهناك كنز مخفي في ذواتنا، فليحفر كل واحد منّا على كنزه، ولا ينظر إلى ما يملك الآخر، بل فقط في ذاتك، وإلا ستظل في الطريق، ورأس العيوب هو رؤية العيوب".

حيث يشرح هذا المعنى جلال الدين الرومي في نكتة بديعة، فيقول: "ذهب أربعة هنود إلى الجامع للصلاة، وفي هذه الأثناء دخل المؤذن إلى الجامع، فقال أحد الهنود ناسيًا أنه في الصلاة: هل رفع الأذان؟ فوكزه الثاني قائلاً: لقد تكلمت، فسدت صلاتك. قال الهندي الثالث للثاني: يا مسكين، انشغل بصلاتك بدل الانشغال بصاحبك، ففرح الهندي الرابع وقال بصوت عالٍ: الحمد لله، لم أفسد صلاتي مثلما فعل هؤلاء. وهكذا فسدت صلاتهم جميعًا. وهذا وصف دقيق لحال النفوس التي تعرض عن عيوب ذاتها، وتلتفت يمنة ويُسرة لالتقاط عيوب الناس. فمهمتك أيها الإنسان، النظر في ذاتك وتنقيتها من العيوب، لتصلح وترحل من هذه الدار وأنت إنسان ولست مسخًا".

مراتب الإنسان

يرى جلال الرومي أن الطفولة واليفاعة لا يتعلقان بالسن بل بدرجة النضج؛ فالذين يجرون خلف أهواء طفولية، يعدّون أطفالاً مهما بلغوا من العمر، يقول: "لا يستحق صفة النضج إلا سكارى الحق الذين سموا على أهواء الدنيا، أما الذين غلبوا على أمرهم بأهواء طفولية غير مقبولة، فيبقون أطفالاً مهما جرى الزمن".

وعلى الرغم من وجود فروق بين البشر، إلا أن العرفاء يقسمون الناس -بحسب نور العقل- إلى ثلاث مجموعات رئيسية: العقلاء، ونصف العقلاء، والبلهاء. فعلامة العقلاء أنهم ينارون بنورهم الداخلي، فهم بهذا النور ينيرون أنفسهم تارة ويقومون بإرشاد قافلة تارة أخرى، هذا العقل الذي لا محل للشك والريبة فيه هو عقل المؤمن الكامل. أما علامة النصف عقلاء فإنهم لا يملكون نورًا ولكنهم يملكون بصيرة ما تكفيهم لاتباعهم الآخر، واتخاذ عينه عينا لهم، وأمثال هؤلاء -وإن لم

عن طريق الرؤية العرفانية الروحانية يمكن لنا أن نجد المشترك الإنساني الذي من خلاله يتم تقليص الهوة الفارقة بين الإنسانية، أي بعد الرجوع إلى ما هو إنساني في الذات الإنسانية وهو صوت الروح والضمير.

يستطيعوا الرؤية النفاذة- يعرفون كيفية الاستفادة من رؤية غيرهم".

أما الصنف الثالث من الناس بحسب الترتيب السابق، فهم البلهاء الذين لا يملكون ذرة عقل ولا يستفيدون من غيرهم، لذا فهم يعيشون في ظلمة حالكة عمياء، يحاولون قطع الصحاري الواسعة وهم يتعرجون ويتجولون هنا وهناك دون جدوى.

ربما يتجلى لنا من خلال هذا العرض، الفرق بين الفلسفات الأخلاقية، والمنظومة الأخلاقية العرفانية؛ ذلك أن الفلسفة الأخلاقية تبتغي ترويض الإنسان لتصنع منه مواطنًا صالحًا في حدود بيئته الجغرافية، لا فردًا صالحًا في العالم، وهو نموذج الإنسان الذي يأتمر بأوامر الواجب الأخلاقي الذي يرصده في شكل قوانين، وصلاحيته تكمن في الامتثال لهذا الواجب.

أما النظرية الأخلاقية العرفانية، فهي تطلب مدرج الإنسان الكامل الذي حيثما وقع نفع، ويكون مسالمًا مع جميع عناصر الوجود حتى مع الجماد الذي يرى من خلاله تجليًا لصفات المُوجِد. فالغاية من العرفان الإسلامي هي التعرف إلى رب العالمين، والوقوف على غرضه الهادف من خلق الإنسان، وأن يعرف ما هي مهام الإنسان أمام الله والناس، وما عليه أن يؤديه في ضوء هداية الأنبياء والكتب السماوية في حياته الفكرية والعملية حتى يرقى المدارج السامية المستكملة، وحينئذ لا يرى إلا الله ﷻ، عارفًا أن الخطوة الأولى في هذا المسير، هي التعرف إلى النفس كما جاء "من عرف نفسه عرف ربه".

معيار التحقق في الفعل الأخلاقي

إن العرفاء قد حددوا تلك المراحل التي لا بد للعارف

hiragate.com

الحقيقي أن يمر بها، ذلك أن العارف الحق هو الذي وصل إلى "تهذيب النفس وتصفية الباطن مرورًا بطريق الكشف والشهود، وهي العبادة وطاعة أوامر الله بعون العشق والتوفيقات الإلهية، طبقًا لقابليته وقدرة فهمه ومجاوزة المراحل الصعبة المليئة بالمخاطر. وهذا هو طريق السلوك إلى الله، يقول عارف الطريق فريد الدين العطار النيسابوري، إنه يشتمل على سبع مراتب، هي الطلب والعشق والمعرفة والاستغناء والتوحيد والفقر والفناء. وهكذا يصل الإنسان الكامل إلى المنزلة المعنوية السامية".

من هنا يتحول الإنسان في تصور العرفاء بعد السير، إلى تعديل السلوك الذي سينطلق من الوجدان، ويتغذى على وقود العشق والمحبة لأنها أصله، ذلك أن الإرادة إذا لم تنطلق من الحب والعشق، فتتعرض إلى الزوال، وشاهد ذلك في المحبين وأفعالهم.

ومن هنا، فإن الغرائز الحيوانية المودعة في الإنسان، من شأنها أن تتحول "وتصادق أشواق الروح وحنينها إلى عالمها العلوي، فتترجمها وتسخرها لحسابها، وتوجهها نشيدًا غريزيًّا هابطًا إلى الصور والأشكال والأهواء".

التكامل الأخلاقي في مدوّنة الرومي

نجد في المدونة العرفانية لجلال الدين الرومي، منهجًا للتكامل المعرفي الأخلاقي، من خلال ما حاول توظيفه في كتابه "المثنوي" من الأمثلة والقصص اليونانية، خاصة في جانبها الأخلاقي، بعد أن ضمنها إلى المجال التداولي الإسلامي، وبعد أن حذف تلك الإحالات والإيحاءات الميتافيزيقة الوثنية الإغريقية، جاعلاً منها أكثر دلالة في تهذيب النفس وإصلاح الذات الإنسانية؛ أي فلسفة أخلاقية إنسانية بكل ما تعنيه هذه الكلمة. فقد وجّه الرومي دعوته إلى الفرد، ناصحًا له أن ينهمك في محاولة دائبة لاكتشاف ذاته، من أجل الوصول إلى إصلاح النفس ثم صياغتها، بحسب المثل العليا التي آمن الرومي بها. هذه المثل تقوم أساسًا على النواحي الإيجابية في جميع الأديان، لا سيما الإسلام والمسيحية، لكنه لا يكتفي بالتعاليم الدينية المذكورة، وإنما نجد في "المثنوي" تأثرًا شديدًا بالأفكار والفلسفات الإغريقية والهيلينية -من مثل الفيثاغورية والأورفية- ثم الأبيقيورية، والرواقية، وبالطبع الأفلاطونية الجديدة".

الأبعاد العرفانية في الفكر الفلسفي المعاصر

بعد عودة الدين في الغرب، كان خيار بعض المفكرين الغربيين الاهتمام بالتراث العرفاني الإسلامي، واكتشفوا حقيقة الإسلام، وبعده الروحاني الذي عمل المستشرقون على تزييفه ونقله بصورة خاطئة؛ حيث أرادوا توظيف ذلك البعد في عملية إصلاح العالم، وبدأت توجهات الكثير من المفكرين إلى هذا الزخم التراثي.. وقد برز من هؤلاء طائفة كبيرة، منهم المفكر الفرنسي "إيريك يونس جوفروا" صاحب كتاب "المستقبل للإسلام الروحاني"، الذي شق فيه دربًا ونفَسًا طويلاً في أهمية الجانب الروحاني للإسلام في علاج الأزمات العالمية التي دشّنتها الحداثة الغربية، عن طريق ما سمّاه "الإنسان الكامل"، إذ يقول: "هذا الإنسان الكامل يكمل القدر النبيل ويتمثل في شيء واحد: أن يكون خليفة الله في الأرض.. إن النزعة الإنسانية الإسلامية تتجسد في أخلاق تضع الإنسان أو الفرد في علاقة ديناميكية بين الحرية والمسؤولية".

كما أن هذه الحكمة الروحانية لا يمكن أن تأخذ بآراء بعض المفكرين الذين دعوا إلى النزعة الإنسانية، التي تحمل الزيف بين لبّتيها، خاصة مع المفكر محمد أركون، وإن "مشروع محمد أركون الهادف إلى بلورة نزعة إنسانية إسلامية مرتكزة في نهاية المطاف على عقل التنوير، يبدو لنا لهذا السبب شيئًا ضروريًا ولكنه غير كاف، لماذا نقول غير كاف؟ لأن هذا العقل كشف عن جوانبه المؤذية الضارة، والضالة المنحرفة داخل التاريخ الأوروبي طيلة القرنين الماضيين، وبالتالي إن العقل الموسع عن طريق العلوي أو الفوقي هو وحده القادر على تقديم حلول للمستقبل".

هذا وعن طريق الرؤية العرفانية الروحانية يمكن لنا أن نجد المشترك الإنساني الذي من خلاله يتم تقليص الهوة الفارقة بين الإنسانية، أي بعد الرجوع إلى ما هو إنساني في الذات الإنسانية وهو صوت الروح والضمير. ■

(*) جامعة لامين دباغين، سطيف / الجزائر.

hiragate.com

تونجاي جليك بيلاك*

نبات يكافح التلوث

إن أعشاش البجع تتميز باتساعها وتمددها، وطولها الذي يصل إلى ثلاثة أمتار في بعض الأحيان، الأمر الذي يجعل بيتها يستعصي على كل من يريد الإضرار بها وبأفراخها، وبينما يقضي الإوز الرمادي معظم حياته في ذلك البيت المصمم من نبات القيصوب (الغاب)، إلا أن بعض أنواع البجع يمكنها أن تعيش في الأماكن المأهولة بالسكان، وبجوار البحيرات الصغيرة، ويمكنها أن تضع بيضها في أي مكان. والمعروف أن هذه الأنواع ومنذ العصور الوسطى، تعيش في المدن، وتعدّ من الحيوانات الأهلية المستأنسة.

وكما يعد نبات القيصوب المأوى الرحيب والآمن لبعض الحيوانات، فله خصائص مهمة يجهلها الكثير من البشر. فالقيصوب (الغاب) يملك ميزة خارقة على اكتشاف التلوث داخل الماء، ومباشرة يقوم بتنظيف الماء من تلك الملوثات.

في مواسم الصيف يتوافد الآلاف من البشر على شواطئ نهر "إيجسل"، وتتلوث المياه بصورة كبيرة بسبب هذه المجموعات من البشر، إلا أن نبات القيصوب المزروع على مساحة ٤٠٠ متر، يقوم بتنقية الماء لدرجة أنه يصبح صالحًا للشرب.

ولقد قامت الباحثة في علم البحيرات (Limnoloji) الدكتورة "كوته سيدل"، بأبحاث استمرت عشرين عامًا، لتكتشف نتائج مدهشة؛ ففي إحدى التجارب قامت بملء خزانات خرسانية طولها خمسة أمتار بالحصى، وأفرغت بها ماء ملوّثًا بالبكتيريا، ثم غرست في الحوض مجموعة من نبات القيصوب (الغاب)، وبعد ساعتين فقط قام القيصوب بالقضاء على ٧٠٪ من بكتيريا "كولي"، كما قضى على ٤٠٪ من بكتيريا المكورات المعوية -والتي تسمى بالبكتيريا الخارقة- وبكتيريا السالمونيلا.

ولقد وضح المختصون أن هذه النتائج، نابعة من وجود مواد تعمل كمضادات حيوية في جذور نبات القيصوب "البوص"، والعجيب أنه لا يفرز تلك المضادات الحيوية لحماية نفسه فقط من البكتيريا، ولكنه يفرزها -أيضًا- لحماية محيطه البيئي.

والحسابات التي أجريت في كل من نهر "ألبا" ونهر "رون" في ألمانيا، كانت تثير الدهشة؛ فخلال ثلاث ساعات فقط من وضع مجموعة من نبات القيصوب داخل النهر، تم القضاء على ٣٪ من بكتيريا السلامونيلا الضارة التي تعيش في النهر، كما تم القضاء على ٢٠٪ من بكتيريا كولي -وتسمى بالبكتيريا الإشريكية القولونية- المنتشرة داخل مياه النهر. وبجوار هذه النتائج العجيبة فلنبات القيصوب "الغاب" مميزات محيرة تجعله يتفوق على كل محطات تصفية المياه الموجودة الآن، بل تجعلنا نعيد النظر في منظومة تصفية المياه، فنبات القيصوب يقوم بتصفية المياه من المواد الصناعية الدقيقة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف يمكن للنباتات البسيطة تلك، أن تقوم بوظائف تصفية المياه المتقدمة، فتحول المرافق ومحطات تصفية المياه المتطورة التي أنشأها البشر بملايين الدولارات، وشارك في بنائها وتطويرها الآلاف، إلى أبنية متواضعة لا تقدر على منافسة النظام الذي يعمل به نبات القيصوب؟

فلا يمكن تدمير النفايات الصناعية بالوسائل الكيميائية أو الميكانيكية، لأن هيكل بنيتها يتصف بالقوة والتعقيد. ولأن هذه النفايات دقيقة الحجم، وبناءها الكيميائي قوي للغاية، فهي قادرة على المرور عبر المرشحات دون عوائق. إلا أن الجدران الجانبية لنبات القيصوب، وبعض الأجزاء الموجودة في جذوره، تستطيع أن تجمع كل هذه النفايات الدقيقة والمستعصية، وتقوم بتخزينها، ونقلها إلى قعر الماء..

وهذا يكشف لنا لماذا تتم زراعة نبات القيصوب في المسطحات المائية؛ فهو عبارة عن نظام بيولوجي لتصفية وتحلية المياه. والعجيب أنه كلما تشعبت جذور

يملك نبات القيصوب (الغاب) قدرة فائقة على اكتشاف التلوث داخل الماء، ومباشرة يقوم بتنظيف الماء من تلك الملوثات. وكلما تشعبت جذور نبات القيصوب زادت كفاءة الماء.

نبات القيصوب زادت كفاءة الماء، وهذه العملية يقوم بها حتى في موسم الشتاء طالما لم تتساقط الثلوج.

إننا كإنسانية وبعد الطفرة الصناعية التي قمنا بها، زادت ملوثات المياه، بل أصبحت الملوثات المائية شديدة السمية، وتؤثر على التوازن البيئي للمياه.

فالملوثات الصناعية تحتوي على بعض المعادن، مثل النحاس، الزئبق، الرصاص، الكادميوم.. وكذلك المواد المشعة، والمواد السمية.. والمدهش أن نبات القيصوب زوِّد بالقدرة على تصفية المياه من تلك الملوثات التي لم يعرفها النظام البيئي إلا مؤخرًا.

ولقد أثبتت التجارب التي أجريت في مركز أبحاث المواد النووية والمشعة في مدينة "كارلسوره" بألمانيا، أن نبات القيصوب لديه قدرة فائقة على تصفية الطين والتربة المصابة بالإشعاع؛ فلقد تعافت التربة وأنتجت محاصيل نبات الخس والفجل.

كما يقوم نبات القيصوب بتحليل مادة الفينول شديدة السمية بصورة جزئية؛ حيث يقوم بتفتيت جزئياتها وإطلاقها في الهواء. ولقد أثبتت الأبحاث أن القيصوب يستطيع تحمل ضعف السمية التي تتحملها الأسماك.

بل والأعجب من ذلك، قدرة القيصوب على تصفية الماء الملوث بالزيوت البترولية، حيث أَثبت فاعلية كبيرة في هذا الخصوص. وللتأكد من هذه الخاصية،

قام الباحثون بإضافة جرام واحد من مادة الديزل على لتر ماء، ووضعوا فيه نبات القيصوب، فوجدوا أن بثلاث دقائق فقط تم تصفية لتر الماء من الديزل. كما وجدوا أن الماء المصفى بواسطة القيصوب، يصل نقاؤه لمستوى ماء الشرب.

قامت الدكتورة "كوته سيدل" وفريقها، بإضافة جرام واحد من مادة الديزل على لتر ماء، ووضعوا فيه نبات القيصوب، ليكتشفوا أنه خلال ثلاث دقائق فقط، تم تصفية لتر الماء من الديزل.

وطبقا للأبحاث التي أجراها العلماء في مدينة "كرفل" بألمانيا، تم التوصل إلى أن الماء المصفى بواسطة القيصوب، يصل نقاؤه لمستوى ماء الشرب. ولقد كرمت الدولة الألمانية العالمة "كوته سيدل" على هذه النتائج المهمة التي توصلت إليها.

وفي مواسم الصيف يتوافد الآلاف من البشر على شواطئ نهر "إيجسل"، وتتلوث المياه بصورة كبيرة بسبب هذه المجموعات من البشر، إلا أن نبات القيصوب المزروع على مساحة ٤٠٠ متر، يقوم بتنقية الماء لدرجة أنه يصبح صالحًا للشرب.

وهكذا نجد أن نبات القيصوب (الغاب)، قد وُهب قدرة على تصفية الماء تفوق قدرات محطات تصفية المياه، وأن هذا النبات العجيب لم يوجد عبثًا في الطبيعة، بل خُلق ليحافظ على التوازن داخل البيئة بكل بساطة ودون أن يُشعِر به أحد. ■

إن نبات القيصوب (الغاب)، يتميز بقدرة على تصفية الماء تفوق قدرات محطات تصفية المياه، وإنه خُلق ليحافظ على التوازن داخل البيئة بكل بساطة ودون أي يُشعِر به أحد.

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: صالح القاضي.

محمد السيد محرم*

عقد المحبة

١ امرأة في قافلة ضاع عقدها ثم وجده القوم محبة لزوجها.. كان يمكن لأحداث قصتنا أن تختصر في الجملة السابقة لولا أن تلك المرأة ليست أي امرأة، وزوجها ليس أي رجل.. إنها عائشة أم المؤمنين ﵂، وزوجها هو الحبيب المصطفى ﷺ سيد الخلق أجمعين.

فما قصة ذلك العقد؟ ولماذا نفرده بالحديث؟ وما علاقتنا نحن بهذه القصة في القرن الحادي والعشرين؟ هذا ما سنعرفه بين دفتي هذه الرسالة الصغيرة التي تحتوي على العديد من الفوائد الجليلة في الزواج والحياة والعلاقة مع الله.

رفيقات السفر

عن عائشة ﵂ أنها قالت: "خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره".. تبدأ حكايتنا عندما خرجت عائشة ﵂ مع النبي ﷺ في أحد أسفاره كما تقول تلك الرواية، وقد اختلف شراح الحديث هل هذه السفرة هي غزوة بني المصطلق أم غزوة أخرى بعدها.

يقول صاحب عمدة القاري في شرح صحيح البخاري: عن عبد الله بن الزبير

عن أبيه عن عائشة ﵂ قالت: "لما كان من أمر عقدي ما كان، وقال أهل الإفك ما قالوا، خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة أخرى، فسقط أيضًا عقدي حتى حبس الناس على التماسه، وطلع الفجر".

وأيًا كانت هذه الرحلة في غزوة بني المصطلق أو غيرها من الغزوات، فالمتفق عليه بين شراح الحديث والرواة أنها كانت في غزوة من الغزوات.

نعم غزوة من الغزوات التي كان يخرج فيها النبي ﷺ مقاتلاً محاربًا معرضًا للنصر أو للهزيمة من قبل أعدائه.

إذن، فقد كان مسموحًا للمرأة أن تخرج للغزوات، بل وتقاتل في الكثير من الأحيان، ولم يكن هناك أحد يعتبر ذلك شذوذًا أو خروجًا عن المألوف، أو طعنًا في نخوة ورجولة زوجها، خاصة مع مجتمع عربي شديد الغيرة على نسائه.. على عكس ما نراه الآن من غيرة مصطنعة تضيّق على الناس معيشتهم تحت ذريعة محاربة الاختلاط المحرم وحرمة العلاقة بين الجنسين أيًا كانت هذه العلاقة.

المرأة في واقعنا المعاصر

إن البعض للأسف الشديد، يرى أن الصورة المثلى للمجتمع المنشود هو أن ينقسم ذلك المجتمع إلى قسمين: عالم الرجال، وعالم النساء، يعيشون على أرض واحدة، ولكن هذا في عالمه وذاك في عالمه.

فمحظور تعامل الجنسين أحدهما مع الآخر، إلا من خلال الزواج، مفسرين أصولاً عامة للشريعة وفق اختياراتهم النفسية، تحت مظلة سد الذريعة وحراسة الفضيلة، حتى ليخيل للناس أن المجتمع الإسلامي لا بد أن يحوي قسمين منعزلين تمامًا، قسم للرجال، وقسم للنساء، حتى ليبالغ بعضهم ويترحم على زمان كانت المرأة لا تخرج فيه إلى الشارع في عمرها إلا مرتين، مرة في يوم زفافها، ومرة يوم تشيع جنازتها.

وهذه الصورة يستحيل تطبيقها في الواقع المعاصر، فضلاً عن أنها لم تكن أبدًا في المجتمع الذي أنشأه رسول الله ﷺ، الذي لم يتم فيه التعامل مع المرأة بكل ذلك التشنج وتلك الحساسية.

فكانت المرأة تخرج حتى للجهاد في سبيل الله،

إن النبي ﷺ يقدّر القيمة المعنوية للعقد الذي تحبه عائشة ﵂، ويضرب لنا مثالاً رائعًا لزوج يتعامل مع حاجات زوجته باحترام وذوق فريد، ويقدم لزوجته عربون المحبة الدائم عبر تلك المواقف الصغيرة.

حراء

وكان التعامل بين الرجال والنساء قائمًا للحاجة في حدود الضوابط الشرعية. إن من يتأمل مجتمع الصحابة ﵃ يجد أن المرأة على عهد رسول الله ﷺ كانت تتعامل بالبيع والشراء، وكانت كذلك تخرج للجهاد تسقي وتداوي الجرحى، وكانت تستفتي رسولَ الله ﷺ وأصحابه، وكانت ترد على الخلفاء من بعده وتعقِّب.

ولكن المشاهد كذلك في المجتمع الأول، أن كل ما يدور من أحاديث بين الرجال والنساء لم يأخذ شكل المسامرة والمزاح والتسلية بسبب أو بدون سبب، وإنما كان كلامًا للحاجة، وأكرر "للحاجة وليس للضرورة".

وختامًا لهذه النقطة، فلا يحق لأحد أن يحرم شيئًا أحله الله أو يحرم شيئًا حرمه الله، أو يضع قيودًا على تعاملات الناس بلا دليل أو مستند شرعي.. وهذا للأسف ما حدث في كثير من المجتمعات التي حاولت أن تفرض قيودًا على العلاقة بين الجنسين ما أنزل الله بها من سلطان، متعللين ببعض الحوادث الفردية التي لا يرضاها الشرع، ومعتبرين أن سد الذرائع سيقي المجتمع من أمثال هذه الحوادث.. ولكن ما حدث للأسف هو عكس المطلوب، مما يدل على أن الالتزام بشرع الله كما ورد عن رسوله ﷺ، هو الأسلم والأحكم والأنفع للأمة والمجتمع.

عقد المحبة

"حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عِقْدٌ لي.. فأقام رسول الله ﷺ على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماءٍ وليس معهم ماءٌ".

وهنا تتصاعد أحداث قصتنا، وتفقد السيدة عائشة ﵂ عقدها الذي قدّر بعض الرواة أن قيمته لا تتجاوز ١٢ درهمًا؛ فقد نقل ابن بطال: "روي أن ثمن العقد

hiragate.com

المذكور كان اثني عشر درهما" (فتح الباري لابن حجر)، وقد كان رد فعل النبي ﷺ أن أوقف القافلة بأكملها ليبحثوا عن عقد عائشة ﷺ.

إن النبي ﷺ هنا يقدّر القيمة المعنوية لهذا العقد الذي تحبه عائشة ﷺ، ويضرب لنا مثالاً رائعًا لزوج يتعامل مع حاجات زوجته باحترام وذوق فريد، ويقدم لزوجته عربون المحبة الدائم عبر تلك المواقف الصغيرة. والرجل الفطن هو الذي يستغل كل فرصة ليقدم هذه الإشارات واللفتات.

وشتان بين ما فعله النبي ﷺ وما يفعله بعض الأزواج الآن من إهمال متعمد للزوجة، وعدم تقدير لاحتياجاتها بحجج كثيرة واهية لعل أكثرها هي الانشغال.. ولن تكون أبدًا أكثر انشغالاً من النبي ﷺ المكلف بتبليغ رسالة ربه للعالمين إنسًا وجانًّا، وتحقيق رسالة الاستخلاف والعمران في الأرض.

ولك أن تعلم أن بعض الرواة قد جزم أن العقد قد ضاع من السيدة عائشة مرتين وليس مرة واحدة، وأن هذه القصة كانت في المرة الثانية؛ فعن محمد بن حبيب الأنصاري ﷺ قال: سقط عقد عائشة ﷺ في غزوة ذات الرقاع وفي غزوة بني المصطلق. (عمدة القاري شرح صحيح البخاري). فأين بالك من بال النبي ﷺ، وصبرك من صبر النبي ﷺ؟

واقعية المجتمع

فأتى الناس إلى أبي بكر ﷺ فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة أقامت برسول الله ﷺ وبالناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخِذِي قد نام فقال: حبَسْتِ رسول الله ﷺ والناسَ وليسوا على ماءٍ وليس معهم ماءٌ، قالت: فعاتبني أبو بكر ﷺ وقال ما شاء الله أن يقول.

وماذا حدث بعد أن فقدت عائشة ﷺ العقد وأمر النبي ﷺ القافلة أن تقف لتبحث عنه؟

غضب الناس، نعم غضبوا لأنه ليس معهم ماء يشربون منه أو يتوضؤون، والمكان الذي وقفوا فيه خال من الآبار والعيون التي يمكن أن يتوافر فيها الماء، مما يعني مشقة متوقعة قد لا يطيقونها، وقد عبروا عن غضبهم بكل حرية لأبي بكر ﷺ والد عائشة ﷺ، وقيل إنهم لم يذهبوا إلى النبي ﷺ لأنه كان نائمًا في هذا الوقت.

لقد كان هذا المجتمع مجتمعًا حرًّا واقعيًّا يتعامل مع الأحداث والأشخاص بواقعية تامة، وكان هذا سره النافذ وحقيقته الكبرى التي كتبت له الخلود في سرديات التاريخ.. فغضب الصحابة ﷺ من تأخر القافلة منطقي أعقبه فعل إيجابي منهم أن اشتكوا لأبي بكر ﷺ ما فعلته ابنته. وقد كان ردة فعل أبي بكر ﷺ أيضًا بشرية منطقية إلى أبعد الحدود، فذهب إلى ابنته محملاً بغضبه الطبيعي كرجل يلومه الناس على إهمال ابنته، وخاصة لو علمنا أن تلك المرة كانت المرة الثانية التي تفقد فيها عائشة ﷺ العقد، وفي بعض الروايات أن أبا بكر ﷺ خاطب عائشة ﷺ قائلاً: حَبستِ الناس في قلادة؟، وروي أنه قال لها أيضًا: في كل مرة تكونين عناء. (فتح الباري، ابن حجر).

وتأمل في قول عائشة ﷺ وهي تروي ما حدث، فلم تقل فعاتبني أبي، وإنما قالت: فعاتبني أبو بكر ﷺ، إنها الفتاة الغاضبة من أبيها الذي جاء يعاتبها في حب زوجها، يقول ابن حجر رحمه الله: والنكتة في قول عائشة فعاتبني أبو بكر ﷺ ولم تقل أبي، لأن قضية الأبوة الحنو، وما وقع من العتاب بالقول والتأديب بالفعل مغاير لذلك في الظاهر، فلذلك أنزلته منزلة الأجنبي فلم تقل أبي" (فتح الباري لابن حجر). أب غاضب يعاتب فتاته الصغيرة على فقدانها عقدها وتعطيل القافلة، فتغضب من معاتبته كما غضب هو من فعلتها.. إنها يوميات العلاقة الصحية بين الآباء والأبناء والأزواج والزوجات وبين أفراد المجتمع، تضع لنا تصورًا صحيحًا عن طبيعة البشر، وفطرتهم التي فطرهم الله عليها من مشاعر وأحاسيس تعلو وتهبط وتبقى القوة في القدرة على التحكم فيها وليس كبتها أو إزالتها والتنكر لها باعتبارها رجس من عمل الشيطان.

درس من مُحبة

"وجعل يطعن بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي".

لقد تطور الأمر بأبي بكر ﷺ في نقاشه مع عائشة ﷺ فلم يكتف بتعنيفها بالكلمات والعبارات، وإنما لجأ

hiragate.com

إلى طعنها بيده طعنات خفيفة ولكنها مؤلمة، ولكن عائشة ﵂ لم تصدر أنة ولا آهة واحدة وهي المتألمة المتوجعة ماديًا ونفسيًا، فوالدها يلومها على أمر ليس بيدها، ولكن حبيبها ينام على فخذها وهي لا تقدر على إيقاظه وإزعاجه مهما كان ألمها.. فهي المحبة المطيعة العارفة لحقوق زوجها، والمتفهمة لطبيعته كقائد عظيم لا ينام إلا وقد غلبه النعاس من شدة التعب والإرهاق.

إنه احترام المساحات الشخصية بين الزوجين، وتقدير الزوجة لتعب زوجها.. ولعل من المناسب هنا أن نتكلم على قضية هامة في العلاقة الزوجية أوحت لنا بها عائشة ﵂ التي تحترم نومة زوجها، ألا وهي احترام صمت الزوج بصورة عامة.

فقد يحدث كثيرًا أن يتوقف الرجل فجأة عن الحديث ويصبح صامتًا، فتظن المرأة في البداية أن الرجل أخرس، أو تظن أنه ربما لا يسمع ما يقال ولهذا لا يستجيب.

وكما يقول الدكتور جون غراي في كتابه "الرجال من المريخ والنساء من الزهرة: "إن الرجال والنساء يعالجون المعلومات بطريقة مختلفة جدًا؛ فالنساء يفكرن بصوت مرتفع، فكثيرًا ما تكتشف المرأة ما تريد أن تقوله من خلال عملية التحدث فقط وعملية السماح للأفكار بالتدفق بحرية والتعبير عنها بصوت مسموع.

لكن الرجال يعالجون المعلومات بطريقة مختلفة جدًا؛ إنهم قبل أن يتكلموا أو يجيبوا يقلبون الأمر بصمت أولاً، أو يفكرون فيما سمعوه، ويقومون داخليًا وبصمت بتخمين الجواب الأصح أو الأكثر نفعًا، وهذه العملية قد تستغرق دقائق إلى ساعات.

ولجعل الأمور أكثر إرباكًا للنساء، فإنه إذا لم يكن لديه معلومات كافية لمعالجة الجواب فلربما لا يستجيب الرجل بتاتًا.

والنساء يحتجن إلى أن يفهمن أنه حينما يكون الرجل صامتًا فإنه يقول: لا أدري بعدُ ما أقول، لكني أفكر في الأمر، إن ما يسمعه بدلاً من هذا هو: أنا لا أجيبك لأنني لا أهتم بك وسأتجاهلك، إن ما قلته لي غير مهم ولهذا أنا لا أستجيب".

وهكذا فإن المرأة الذكية هي التي تحترم صمت زوجها وتحترم خصوصيته، ولا ترهقه بالمشكلات والخلافات عند حضوره من العمل أو قدومه من السفر مرهقًا متعبًا، وإنما تؤخر الحديث والكلام إلى وقت آخر يستطيع فيه الزوج أن يتجاوب معها ويتقبل منها ما تقوله.

بركات آل أبي بكر

فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماءٍ فأنزل الله ﷻ آية التيمّم فتيمّموا.. فقال أُسيْد بن الحضَير ﵁ وهو أحد النقباء: ما هي بأول بركاتكم يا آل أبي بكر.

فقالت عائشة ﵂: فبعثنا البعير الذي كنتُ عليه فوجدنا العقد تحته.

وفي ختام القصة ينزل الفرج من الله ﷻ الرحيم بعباده، الذي أنزل دينًا سهلاً ميسرًا للعالمين فتنزل رخصة التيمم في حال فقدان الماء لتكون رخصة عامة للأمة الإسلامية جمعاء غير مختصة بزمان ولا مكان.

وتأمل في نفس أسيد بن حضير ﵁ وهو الذي كلفه النبي ﷺ بالبحث عن قلادة عائشة ﵂ كيف كانت نفسه زكية عفيفة لا ينسى فضل عائشة ﵂ وأزمتها في إنزال تلك الرخصة العظيمة للمسلمين على الرغم من الغضب المكتوم في نفوس العديدين مما فعلته عائشة ﵂ بالقافلة وتأخيرها، إلا أن نفسه العفيفة الأبية أبت إلا الاعتراف بالحق وإلحاق الفضل بأهله، فنسب الفضل إلى آل أبي بكر ﵃، وفي بعض الروايات قال لها: فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه، إلا جعل للمسلمين خيرًا، وفي رواية أخرى: إلاَّ جعل لك منه مخرجًا، وجعل للمسلمين فيه بركة" (عمدة القاري شرح صحيح البخاري).

وفي النهاية وجدت عائشة ﵂ عقدها، وعاد المسلمون إلى المدينة، ونزلت آية التيمم رخصة للمسلمين جميعًا، واقتطعنا نحن مقطوعة متميزة من السيرة النبوية استخلصنا منها دروسًا وعبرًا لمسلمي القرن الحادي والعشرين، لنكون حقًا متأسين بحبينا ﷺ، متبعين لسنته، مقتفين لأثره، عاملين بهداه إلى يوم الدين. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

د. عبد الإله بن مصباح*

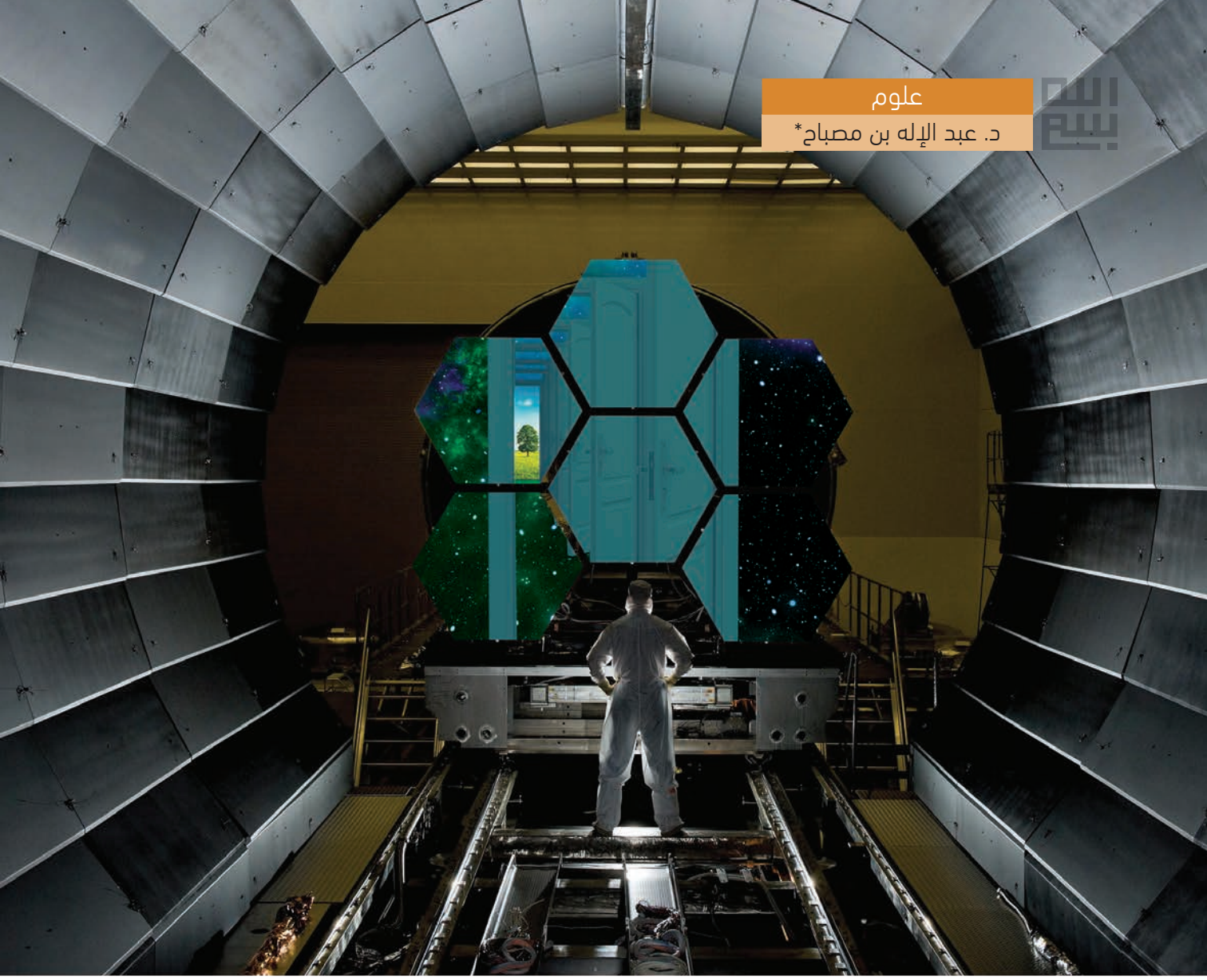

الممارسات العلمية

بين وفرة الإمكانات وندرة الغايات

شاء الله تعالى أن يسوق إليّ مشهدًا ملهِمًا من إحدى الفضائيات لبرنامج وثائقي حول أعظم المشاريع العملاقة التي أنجزت في العالم. وكانت تلك الحلقة خاصة بمشروع بناء أحد أكبر المنشآت بولاية نيفادا الأميركية. فاستُعملت أدق الوسائل العلمية بأحدث الآليات التقنية في إنجاز المشروع، بحيث أحاطت الدراسات إحاطة فائقة بكل جوانب الواقع من طبوغرافية الأرض وتركيبة ما تحتها، ونوعية التربة، وتحليل مكوناتها، ومعطيات الجو، وطبيعة المياه، وغير ذلك. كما تمكنت تمكنًا محكمًا من معطيات العقل الضابطة للقوى الميكانيكية، وللتوازنات الفيزيائية، والتفاعلات الكيميائية المبرمجة بأدق الآليات الإلكترونية.

وجاءت ساعة الحسم، حيث سيتم نصب المنشأة وفق تدابير بالغة الدقة وشديدة التعقيد، رصدت لها آليات رفع عملاقة وطائرات مروحية وغير ذلك. فلما تأكد رئيس فرقة الإنجاز من جاهزية كل شيء، واستعد لإعطاء إشارة البدء في تركيب القطع الإسمنتية المعلقة

وكل فرق العمل على أهبة الاستعداد، تحركت ريح لم تكن بالحسبان فأربكت كل الحسابات واضطرت الطواقم العاملة إلى الانتظار تلو الانتظار، ثم التوقف وتأجيل العملية بما يترتب عن ذلك من خسائر مادية ومعنوية. فلم يجد كبير المهندسين المسؤول عن المشروع بدًّا من التصريح بعجز التدابير المتخذة أمام تأثير الريح المفاجئة، فقال آسفًا وهو يعلل توقفه هذا الذي لم يكن منتظرًا: "آه.. لو كان بإمكاني أن أخاطب آلهة الرياح، لطلبت منها إيقاف الريح إلى ما بعد إنهاء مهمتنا".

وهذا اعتراف صريح من رجل ذي خبرة عالية بضعف المقدرات البشرية أمام تأثير الظواهر الطبيعية. فقوله هذا الذي يطلب فيه المدد من مصادر فوق بشرية وإن كان يحمل في ظاهره عبارة "آلهة الرياح" التي تترجم شركًا ظاهريًّا مركبًا عن جهل بما وراء الطبيعة، إلا أنه ينطوي ضمنيًّا على اعتراف بضعف التدابير الموضوعية للإنسان، وإقرار بأن هناك قوة خارقة في عالم ما وراء الواقع والعقل فاقت توقعات الإنسان وتدابيره هي التي تُطلب عند انقطاع الأسباب. وتلك هي قدرة الله الخفية التي لم يلتفت إليها الرجل لأنها من صميم أخبار الوحي الغيبية، والتي لاذت بها أحاسيسه الذاتية لما نفدت جهوده الموضوعية، لكن بعبارات بعُدت عن مصادرها السماوية لِما لحق بفطرته من علل طمَست معالمَها الأصلية.

فما العبر التي نستوحيها من هذا المشهد المعبر؟ وكيف يجب أن نقرأ الأشياء من خلال هذا الاعتراف الضمني؟

لما خلق الله آدم عليه السلام ونفخ فيه من روحه، بث فيه من العلم ما أصبح فطرة في البشر. فالعلم هو ميزان الفطرة السليمة في الإنسان الذي به يترقى في مراتب الكمال التي من أجلها خُلق. فهو ينبني على أسس الواقع والعقل والوحي. وما صرَف فكرَ الإنسان عن هذه البنية الفطرية المتكاملة للعلم، إلا علل طرأت عليه فأبعدته عن الإحاطة العلمية التي هو مطالب بها. فإذا رأيت العالِم تنزّل علمُه التنزيل المتكامل على هذه الأسس الثلاثة فتوافق عنده الواقع والعقل مع الوحي، فاعلم أن ذلك من سلامة فطرته، وإلا فهو في

إن الضغط المتولد عن إحكام قبضة الموضوعية على الممارسات والتطبيقات العلمية، إذا لم يُمتص بقوة الأحاسيس الذاتية النابعة من مقومات الباحث الفطرية، فإنه سيحوّل الممارسات العلمية إلى آليات تدمير لملكات الإنسان الذاتية.

حراء

ضعف من الفطرة تبعده تداعياتها عن الإحاطة العلمية بحقائق الأشياء ومضامينها. ولا أدل على ذلك مما جاء به قول الله ﷻ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾(العنكبوت:٢٠-٢١).

وهي الآية التي تستوعب كل المنهاج التجريبي بين كلمتي "انظروا" و"كيف"، اللتين تجمعان خصائص الملاحظة والفرضية والتجربة، بل وتتجاوزها إلى حد التوثيق الزماني والمكاني لموضوع البحث بإقرار السير في الأرض كعنصر دال على البعد المكاني (الواقع) والفارق بين بدء الخلق ونشأته الآخرة كعنصر دال على البعد الزماني، وذلك لإضفاء صفة الدراسة المقارنة "فانظروا كيف" التي تتطلب استعمال العقل في استجلاء ظواهر الخلق بالتنقل بين أرجاء الأرض، ثم الربط الزمني بين مراحلها على اعتبار عامل الزمن مؤثرًا في تطورها.

فالآية بإقرارها لعلاقة التلازم القائمة بين بعدي المكان والزمان في موضوع النظر هذا، إنما تكون أقرت بنسبية كل واحد منهما للآخر، إذ لا يصير لأحدهما مدلول إلا من مفهوم وحدته مع الآخر. فكان التوجيه الرباني في هذه الآية منهاجًا تجريبيًّا شاملاً سطر الحق سبحانه فيه مجال البحث وفق محورين متلازمين: محور أفقي وهو المكان الذي تدل فيه عبارة "في الأرض" على شمولية المجال لكل النطق التي ترتفع أو تنخفض عن مستوى سطح الأرض، ومحور عمودي وهو الزمان الذي تدل فيه عبارتا "بدْء الخلق" و"نشأته الآخرة" على فعل الزمان كأداة يغير الله ﷻ بها خصائص الخلق،

hiragate.com

ويرتب بها أطواره وفق سنة التطور التي أقرها عليه.

وعلى سكة هذين المحورين، تُنزّل قاطرة البحث لتسير بخطى حثيثة تطلب بوسائل البرهنة والاستدلال الحقائق العلمية المفضية إلى الحقيقة المطلقة الكامنة خلف كل هذه الحقائق النسبية وهي اليقين بأن "الله على كل شيء قدير"، التي هي من صميم الوحي. وذلك هو الهدف الأسمى من العلم، لما فسر ابن عباس ﷺ قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(فاطر:٢٨)، قال: "العلماء هم الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير".

لكن العلوم اليوم بممارساتها الموغلة في الموضوعية، تضع نفسها في مسار يُبعدها كل مرة عن هذا المنظور. فالعلوم اليوم باعتمادها مبدأ التصورات الميكانيكية للأشياء، تفقد المصداقية في إبداء التفاسير المقنعة بخصوص حقيقة هذا العالم. ذلك أنها بتقويضها لخاصية الشعورية الذاتية الكامنة في عمق الإنسان والمنبثقة من إحساسه الفطري، تحطم في الباحث تلك الحماسة المنبعثة من أحاسيسه الباطنية، التي من شأنها أن تحرك في الباحث نوازع العلاقة الفطرية القائمة بينه وبين الأشياء.

وهذه إشكالية كبرى يعيشها الحقل العلمي. فالعلوم طالما أنها تبحث عن الحقيقة التي تظل دائمًا في أفق الفكر الإنساني، وحيث إنها تبقى تشكل دائمًا الوسيلة المثلى لنهضة الإنسان وتطور حياته، وكون أن تطبيقاتها يمكن أن تؤدي بالإنسان إلى نتائج سلبية أو ربما كارثية، فكل هذا يستوجب الوقوف بالنقد والتحليل على حقيقة هذا المسار الموروث عن فكرة الموضوعية، التي باعتبارها العالَم كيانًا ماديًّا تكون ساهمت بشكل كبير في تحريف المسار العلمي عن درب الاستقامة الكونية.

فالعلوم بإنجازاتها في شتى الميادين، قدمت وتقدم للإنسانية الكثير. لكن ثمة إشكاليات كثيرة تطرح نفسها اليوم بإلحاح كبير، خاصة على المستويات الأخلاقية والنفسية والاجتماعية والبيئية، وكلها مرتبطة بالتأثير المفرط للموضوعية على ذاتية الباحث. ذلك أن العلوم اليوم بلجوئها إلى اعتماد التراكمية المعرفية القائمة على الدقة الكمية المقصية لكل خصوصيات الإرادة والوعي الإنسانيين، باتت تفرض على الباحث مسَلمات نظرية وتطبيقية كمرجعيات جاهزة لتعريف كل الظواهر الكونية، دون إعارة الاعتبار في التعامل مع هذه الظواهر للأحاسيس الذاتية والقيم الروحية.

وهنا تضع العلوم الباحثَ في وضعية حرجة لا تتفق مع خصوصيات ذاته، فتجده يُساق كرها في مساق التمييز بين الذات والموضوع، فلا يعبر عن ما يخالج نفسه بشأن حقيقة الأشياء، وإنما عن ما يُمليه عليه هذا السياق. علمًا بأن الباحث باستثماره لذاتيته في إبداء أفكاره العلمية، يكون وحّد بين الذات والموضوع على غرار العالَم الذي تتوحد فيه المادة مع الطاقة، وكائناته التي تتوحّد فيها الأجسام مع الأرواح. وخارج هذه الوحدة، مهما حاولت العلوم أن تفسر الأشياء والظواهر، فإنها لن تسلم من الوقوع في منزلقات المادية المهلكة؛ لأن الباحث تحت ضغط الموضوعية المفرطة التي تحول بينه وبين حقيقة الأشياء، يجد نفسه غارقًا في طقوس الممارسات العلمية التي تمتهن العلم من أجل العلم والتقنية من أجل التقنية، دون استحضار لتلك الأهداف السامية التي من شأنها أن تضع الباحث أمام حقيقة التفاعل مع هذا العالم، مع جمالية مكوناته ومع تناسق علله، فتؤول إنجازاته العلمية إلى مآلات قد تورد العالَم موارد الدمار وعدم الاستقرار.

من هذا المنطلق، نجد أن الضغط المتولد عن إحكام قبضة الموضوعية على الممارسات والتطبيقات العلمية، إذا لم يُمتص بقوة الأحاسيس الذاتية النابعة من مقومات الباحث الفطرية، فإنه سيحوّل الممارسات العلمية إلى آليات تدمير لملكات الإنسان الذاتية فلا يعود يرى من معالم الأشياء إلا ما هو مدرك بالحواس والعقل، بينما يمر على الأهم الذي من شأنه أن يعرّفه على حقيقة ما تخفيه تلك الأشياء، وعلى مغزى ما تشير إليه دلالاتها العلمية.

ومن هنا، فنظرة العلم للأشياء من هذه الزاوية -زاوية الموضوعية المجحفة- لا يمكن لها أن تستوعب حقيقة العالَم، لأن الهدف من العلم ليس فقط دراسة طبيعة الذرات ولا عمل المجرات، بقدر ما هو الفهم لما تستبطنه أسرارها، ذلك الفهم الذي لا يتأتى بموضوعية جافة موجَّهة بقراءة تجزيئية لحقائق العالَم، وإنما بانفتاح على جواهر الأشياء من خلال

hiragate.com

استحضار الباحث لتلك القراءة الشمولية التي تجعل رؤيته للأشياء متكاملة مع نُسقها الكونية التي تجعله يستوعب أبعادها الدلالية. فالطبيعة التي كلها إشارات إلى هذا التفاعل القائم بين الإنسان والأشياء، إذ تحثنا من خلال تناسق عللها على تبني هذه القراءة الشمولية، إنما تستنهض فينا تلك الأحاسيس الذاتية التي تخرجنا من ضيق تصوراتنا الميكانيكية للأشياء، إلى الآفاق الرحبة لمضامينها الدلالية. فينتج عن هذا الانفراج في الفهم الذي يستوعب الأشياء بملامستها من خلال تلاقي إيحاءات العقل مع همسات القلب، أحاسيس من السعادة والمحبة لهذا العالم، تجعل الباحث يحظى بقدرات من الذكاء والفطنة، تفوق قدراته الأكاديمية على مواجهة مشاكل الحياة وتحدياتها.

فكم من فكر علمي اعتُبر عند ظهوره، نشازًا فسُفِّه وفسِّق بل ولربما حورب، ثم ما لبث أن صار بداهة بإجماع العلماء. وكم من عالِم اعتُبر فاشلاً في مجال تعليمه الاجتماعي لكن بمجهوداته الذاتية استطاع أن يقلب موازين العالَم.. مما يدل على أن الفكر العلمي لا يمكن أن يخلو من تلك الأحاسيس المستلهمة من بعد فلسفة اكتشاف موقع الذات من مكونات هذا الكون، ومن السر المعنوي لعمق هذا الموقع المرتبط ارتباطًا وثيقًا بمفهوم الخلوة والتفكر. ذلك المفهوم الذي تشهد بحقيقته سنّة سيد الخلق محمد بن عبد الله ﷺ، الذي ما اختلى بغار "حراء" قبل البعثة، إلا من أجل بناء فكر سليم أساسه الفطرة الربانية المستنهِضة لعبادة التفكر التي هي أعظم باب يدخل منه الإنسان إلى الله ﷻ. فحتى يترقى الإنسان في مراتب الكمال التي من أجلها خلق، كان لا بد له أن ينأى بنفسه في فترات كثيرة عن قيود التوجيه العلمي الاجتماعي، إلى حرية الفضاء الفطري.. ذلك الفضاء الذي في خلو الإنسان فيه بذاته، تتكلم مواهبه وتنشط تجاربه، فتنتشله من أوحال التبعية والتقليد، لترتقي به في مراتب الإبداع والتجديد.

وهكذا، إذا عدنا إلى المشهد الذي منه ابتدأنا، فسنجد أن تلك اللقطة التي ساقها الله تعالى إلى المشاهد، ليريه اعتراف أحد أكبر الخبراء بعجز تدابير الإنسان أمام فعل الطبيعة، وطلبه الغوث من عالم ما وراء الطبيعة، إنما

الهدف من العلم ليس فقط دراسة طبيعة الذرات ولا عمل المجرات، وإنما بانفتاح على جواهر الأشياء من خلال استحضار الباحث للقراءة الشمولية التي تجعل رؤيته للأشياء متكاملة مع نُسقها الكونية التي تجعله يستوعب أبعادها الدلالية.

حراء

هي رسالة جاءت إلى ذلك المشاهد وهو على أريكته ينظر التلفاز، لتدله على حقيقة الضعف الذي هو صفة الإنسان أمام خالقه، وتذكره بأن الفطرة الغائرة في ذلك الإنسان هي التي حركت فيه ذلك الكلام.

فكم نحن غافلون عن تلك الأحاسيس في استثمار قدراتنا الذاتية، علمًا بأنها كانت في نعومة طفولتنا هي المحركة لنضجنا العقلي والباعثة لحماسنا المعرفي. فالإنسان كما أنه يبدي إحساسًا تجاه الطبيعة المحيطة به، كذلك هذه الطبيعة -بروحانية مكوناتها- توحي إليه من الأحاسيس ما يجعله يغوص في أعماقها باحثًا عن سر حقيقتها. فإذا أحسن استثمار هذه العلاقة الروحانية القائمة بينه وبين الطبيعة، وصل إلى فهم المعنى الذي يريده الله ﷻ من هذا العالم، وإلا فإن الإنسان بانسياقه وراء ماديات الأشياء التي تمليها عليه موضوعيته المجحفة، لن يصل إلا إلى المعنى الذي يريده هو، فيقع في نقائص معيبة غالبًا ما تؤدي به إلى مفاهيم مبتورة، بحيث يعود يمر أمام الأشياء فلا يرى منها إلا الظاهر دون الكشف عن الأهم الذي تخفيه مواضيعها من حقائق وأسرار.

وهكذا، فإن كل محاولة لتحطيم الأحاسيس الذاتية للباحث بحجة الموضوعية العلمية، إنما هي تقزيم للممارسات العلمية بتحويل المفاهيم إلى تصورات ميكانيكية تُفرّغ العالِم من فطرته الآدمية، فيعود العلم مهما بنى بكثرة الوسائل ووفرة الإمكانيات، يدمر بتفاهة الأهداف وانعدام الغايات. ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

hiragate.com

خلف أحمد أبو زيد*

كتابة المكفوفين

محاولات رائدة لعلماء مسلمين

تنسب الكتابة البارزة لتعليم القراءة والكتابة للعميان في العصر الحديث، إلى الفرنسي "لويس برايل" (١٨٠٩-١٨٥٢م)، والتي عرفت في الأوساط العلمية بطريقة "برايل"، إلا أن حقائق التاريخ تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك؛ بأنْ كانت هناك محاولات رائدة لعلماء مسلمين في اختراع الكتابة البارزة للعميان سبقت برايل بقرون طويلة. ونتناول عبر هذه السطور، أشهر هذه المحاولات التي تؤكد على سبق وريادة العلماء المسلمين في هذا المجال الهام.

ابن كشاجم

وأولى هذه المحاولات ترجع إلى القرن الرابع الهجري، وكانت على يد أحمد بن محمود بن الحسين بن أبي الفتح كشاجم، وكلمة "كشاجم" منحوت فيما يقال من علوم كان يتقنها، الكاف للكتابة والشين للشعر، والألف للإنشاء، والجيم للجدل، والميم للمنطق، وقيل لأنه كان كاتبًا شاعرًا أديبًا جميلاً.. ومما ذكر عنه فيما يخص القراءة والكتابة للمكفوفين، ما عثر عليه في مخطوط يؤكد على أن ابن كشاجم كان يقرأ فص الخاتم باللمس دون

الرؤية، وذلك قبل اختراع قراءة العميان بألف سنة".

علي بن أحمد بن يوسف بن الخضر

أما المحاولة الثانية، فكانت على يد العالم علي بن أحمد بن يوسف بن الخضر. ومما ورد في ترجمته، أنه كان شيخًا مليحًا وهيبًا صالحًا ثقة صدوقًا كبير القدر والسن.. أصيب في أوائل حياته بفقدان البصر، ورغم ذلك احترف مهنة بيع الكتب واقتنائها، ولكي يعرف عناوين هذه الكتب وأسماء مؤلفيها وأثمانها، اخترع طريقة الكتابة البارزة لهذه العناوين وتلك الأسماء والأسعار، ويحدثنا الصفدي في كتابه "نكت الهميان في نكت العميان"، عن الطريقة التي اخترعها في القراءة وتميز الأشياء بعضها عن بعض فيقول: إنه كان إذا طلب منه كتاب وكان يعلم أنه عنده، نهض إلى خزانة كتبه واستخرجه من بينها كأنه قد وضعه لساعته، وإن كان الكتاب عدة مجلدات وطلب منه الأول -مثلًا- أو الثاني أو الثالث أو غير ذلك، أخرجه بعينه وأتى به. كان يلمس الكتاب أولاً، ثم يقول يشتمل هذا الكتاب على كذا وكذا كراسة، فيكون الأمر كما قال.. وإذا مر بيده على الصفحة، قال أسطر هذه الصفحة كذا وكذا سطرًا، فيها بالقلم الغليظ كذا، وهذا الموضع كتب به في الوجهة وفيها بالحمرة هذا وهذه المواضع كتبت فيها بالحمرة.. وإن اتفق أنها كتبت بخطين أو ثلاثة، قال اختلف الخط من هنا إلى هنا من غير إخلال بشيء مما يمتحن به. ويعرف أثمان جميع كتبه التي اقتناها بالشراء، وذلك أنه كان إذا اشترى أي كتاب بشيء معلوم، أخذ قطعة ورق خفيفة، وفتل منها فتيلة لطيفة وصنعها حرفًا أو أكثر من حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الجمل، ثم يلصق ذلك على طرف جلد الكتاب من داخل ويلصق فوقه ورقة بقدر لتتأبد، فإذا شذ من ذهنه ثمن كتاب ما من كتبه، مس الموضع الذي علمه في ذلك بيده، فيعرف ثمنه من تثبيت العدد الملصق فيه".

ونلمس من خلال هذا الكلام، أن علي بن أحمد بن يوسف بن الخضر، كان آية عجيبة بين العميان، وكانت له قوة عجيبة في اللمس.. وبذلك يكون من أوائل العلماء الذين فكروا في إيجاد تلك الطريقة النافرة في الخط، ليتمكن العميان والمكفوفين بواسطتها من القراءة بصورة مبسطة وسهلة.

تنسب الكتابة البارزة لتعليم القراءة والكتابة للعميان في العصر الحديث، إلى الفرنسي لويس برايل، والتي عرفت بطريقة برايل، إلا أن حقائق التاريخ تؤكد وجود محاولات رائدة لعلماء مسلمين في اختراع الكتابة البارزة للعميان سبقت برايل بقرون طويلة.

أحمد بن محمد بن عبد الوراث الأندلسي

أما المحاولة الثالثة، فقد كانت في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وهي لعالم أندلسي يدعى أحمد بن محمد بن عبد الوراث، وقد كشف عن ذلك العلامة ابن حزم الأندلسي في كتابه "التقريب لحد المنطق"؛ فقد جاء ما نصه: أخبرني مؤدبي ابن عبد الوراث -رحمه الله- أن أباه ولد له ولد أعمي، فأراد أن يعلمه القراءة، فصور له حروف الهجاء من مادة القير بشكل بارز، وألمسه أياها، حتى وقف على صورها بعقله وحسه، ثم ألمسه تراكيبها وقيام الأشياء منها، حتى يتشكل الخط ويقرأ بنفسه، وهو بذلك رفع عنه غصة عظيمة.

ونلمس من خلال ما أورده ابن حزم عن هذه الطريقة التي ابتكرها ابن عبد الوراث في عصره، كيف أن صاحبها كان صاحب أفق واسع في اختراع هذه الطريقة التي أخذت بها معاهد تعاليم المكفوفين في العصر الحديث، التي كانت تعتمد أساسًا في تعليم القراءة والكتابة على لمس حروف كبيرة مصنوعة من المعدن، الأمر الذي يؤكد السبق والريادة لعالمنا.

لعلنا هنا نكون قد ساهمنا في إماطة اللثام، على جانب مجهول من عطاءات علماء المسلمين في مجال الكتابة والقراءة للمكفوفين، الأمر الذي يؤكد على أنه كان لهم السبق في اختراع الكتابة البارزة، قبل الفرنسي "برايل" بقرون طويلة، ولعل الأيام تجود علينا بمثل هؤلاء العلماء الأفذاذ، فيحملون للعالم من جديد مشاعل العلم والحضارة، كما حملها أجدادهم من قبل. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلًا ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار الانبعاث للنشر والتوزيع

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
إسماعيل قايار

الإخراج الفني
نور الدين محمد صواش
محمد أشرف

منسق الاشتراكات
علاء الكوابري
+201000780841
+201023201002

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229-68

IRAQ
Kani İrfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA
Phone: +1 732 868 0210
Fax: +1 732 868 0211

EGYPT
٢٢ ج جنوب الأكاديمية، التجمع الخامس، القاهرة الجديدة، القاهرة.
هاتف: +20123201002 - +201066067034
hirasubscription@gmail.com
اشتراك وتوزيع هاتف: +201116793277

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

NIGERIA
Nusret Educational And Cultural Co. Ltd.
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
nusretnigeria@gmail.com

طوبى وألف طوبى للغرباء..

الذين يتنفسون أملاً وينشرون أمنًا وسكينة وسلامًا..

وينسون ملذاتهم الذاتية من أجل سعادة الآخرين..

كتاب جديد

للأستاذ فتح الله كولن

مركز التوزيع: دار الانبعاث | daralinbiath@gmail.com | 00201023201002

مركز البيع الإلكتروني: www.souq.com

@daralinbiath | @daralinbiath

حـــراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

الماء والحياة

اِسقِ، كيلا تجفّ الورود والأزهار،
خبتْ نضرتُنا وذبلنا، جيل الجفاف نحن،
اِسقِ، لا تدعْ أرضًا بلا سقاء،
إلى الماء احترقنا شوقًا،
حتى صرنا رمادًا.

***

ISSN 2357-0229
68
9 772357 022004
www.hiragate.com